

محمود نورا

شباب و غانیا
واقاصیصر اخی

obeykandl.com

obeykhalid.com

الطبعة الأولى - ١٩٥١

obeykandl.com

نِجَابٌ وَغَانِيَاتٌ

١

نشأتُ في أعقاب القرن الماضي ، القرن التاسع عشر ، يتيماً
لا أرى لى أباً ولا أمّاً ، وعشتُ مع أخى وزوجته في منزل الأسرة
الكبير بـ « الحمزاوى » ، يقوم على شئوننا خدَم كثير . وكنت أشهد
الزُّوَّار لا ينقطعون عن زيارتنا في صيف أو شتاء ، ومنهم من يقضى في
ضيافتنا الأيام والأسابيع .

وكان المنزل أشبه بالقلعة العتيقة ، له سُور شاهق ، ومخابىء مرهوبة .
وهو يزخر بأثاث فخم تحتويه حجرات رحبية ذات سقوف عالية تملأ
النفس من روعة وجلال .

أما الحديقة فغير منسّقة ، تكتظُّ بالأشجار الكبيرة ، وتتوسطها
نافورة دبّ فيها البلي ، فهدمت منها الجوانب ، وغاض بعض ما لها من
بهاء . ولكنها مع ذلك لم تفقد جاذبيتها التي تستهوى القلوب وتستلقت

الأنظار . وقد جعل البستاني حوله مرتعاً للبط والإوز ، يظل طول يومه سابحاً في الماء سِرْباً خلف سرب ، في غبطة ومراح ، مردداً صيحات يستجيب لها الطير على أفنان الشجر بالأغريد . وغير بعيدٍ من تلك النافورة تقوم ظلة خشبية عني عليها الزمن ، تُشعرك بما بقي فيها من جمال ورونق أنها كانت في سواف السنين مسرحاً لألوان من الأنس والمتعة والنعيم .

وكان « حمادة » أخي لأبي ، يكبرني بثلاثين عاماً ، وكنت أخشاه وأتجنب لقاءه جهد ما أستطيع ، فإن نظرة واحدة منه جديرة أن يرّجف لها قلبي رعباً . ولم يكن الخدم بأشدّ شجاعة مني في لقاءه ، فهم إذا سمعوا على البعد وقع خطاه الثقيلة المتزنة تسالوا لوإذا .

وكانت زوجته « مودة هانم » التي أناديتها بأمي ، تحبه وتجله ، حتى إنها تُحكّمه في مالها كله ، ولا تحاسبه في شيء منه ، وهي تعلم أنه أضعاف صفة ما يمتلك ، قبل أن يكون لها زوجاً . ولم تكن قد رزقت منه بولد ، فاتخذتني ابناً لها ، وأغدقت عليّ من حنانها وتدليلها ما أنساني يُتَمي ، فأحبتها حباً عميقاً ما أحسب أن الأبناء يدخرون أكثر منه للأمهات .

وكانت لي حاضنة حبيبة إلى اسمها « مسرات » نوبية المنبت ،

غليظة الجسم في تَرَهُّل ، شَدَّ مَا أعاكسها فلا يهون عليها أن تؤذيني
لحبها إياي ، وحين يبلغ منها الضيق كل مبلغ تَهَيِّجُ حماقتها الجامحة ،
فَتَنجِي على وجهها ضرباً وشداً .

وكان للبستانيّ مساعد يدعى « العيُوطى » وهو غلام على هيئة
« الغوريلا » مجعد البشرة ، له صوت خشن ، وسَعْلَةٌ مزعجة ، وله
نظرات غريبة تنفذ إلى صميم قلبي وتهزني . وعلى الرغم من كراهيتي له
كنت أستجيب لما يريثني عليه ، فسير في نفاق أخى طاعة له ،
وأدخن معه في الحنايا المهجورة من الحديقة . وكانت تغيظني منه نظرات
الاحتقار التي يُصَوِّبها إليّ ، وتلك اللهجة العنيفة التي يخاطبني بها .
وقامت بنفسى أمنية عزيزة ، هي أن تتاح لي فرصة طيبة ، فأتناول عصاً
غليظةً لأنهال بها عليه أشبعه ضرباً .

وعصرَ يوم من الأيام ، فاجأنا أخى ونحن في الحديقة ندخن ،
وسرعان ما حكم على بالحبس في مخزن الوقود القصي ، معترماً أن
يتركني فيه عامة الليل ، فقذف بي في المخزن ، وأغلق بابه علىّ ، فإذا
هو حجرة قدرة ليس فيها إلا كوة عالية ينفذ منها الضوء مُجهداً هزيباً .
ولم أشعر بادئ الأمر بالوحشة ، إذ قدّم بعض الخادِمات يسامرنى
خلف الباب ، ولما تفرّقن عنى ، وأحسستُ الوحدة الرابعة ، ورأيتُ

الظلمة تحتشد ، خيّل إلى أن عيوناً حمراً يتراقص منها الشرر
متوثبة حوالى ، وأنى أسمع زمزمة مخيفة تُصمُّ أذنى . فانبعثت أبكى
وأصرخ مستغيثاً بزواج أخى وحاضنتى ، وأنا متشبثٌ بالباب مطبق
العينين .

وطرق سمعى جلبة فى الدار ولغظ ، ثم تبينت أنهم أرسلوا « الأغا »
ليطلب المفتاح من أخى ، وكان فى زيارة لأحد أصدقائه من الجيرة ،
وسمعتُ زوج أخى صارخة تستحثّ الخدم على الإسراع ، وهى مطلة
من نافذة حجرتها العليا ، تقول بين فترة وأخرى :
أدركوه . . . سيموت الولد حتماً !

وسمعت كذلك حاضنتى « مسرات » ، وهى على مقربة من باب
المخزن ، تبكى تارة ، وتطمئننى طورا . . .

وبعد فترة جىء بالمفتاح ، فما إن أحسستُ بالأيدى تتلقانى حتى
خارت قواى ، وسرعان ما وجدتنى على سرير زوج أخى ، وهى بجانبى
تُنشِئُنِي عطراً منبهاً ، وتَنضِّحُ وجهى بماء الورد ، فتعلقتُ بها أتوسل
إليها ألا تبرح مكانى ، فأخذتنى فى حضنها ، وأكدت لى أنها ستبقينى
فى فراشها ليلتى هذه . وأحسستُ يدي الحاضنة « مسرات » تدلُكُنِ
قدِّمى . وكان جوُّ الحجرة مُشبعاً بالبخور ، فشعرت بتخاذل يسرى

في أوصالي ، فيبعث فيها الراحة والطمأنينة ، ولم ألبث أن أرخيت جفني ،
واستغرقتُ على الأثر في نوم عميق .

وفي غدٍ أخذتني « مودّة هانم » من يدي ، ومضتُ بي إلى
الردهة ، حيث يتناول أخي قهوة الصُّحى ، وقالت لى :
أَقْبِلِ يَا « سامى » قَبْلُ يَدِ أَخِيكَ مُسْتَسْمِحًا .
فأذعنتُ لأمرها ، وانصرفتُ من لدن أخي مرضياً عنى .

وعلمتُ بعد ذلك أنهم طردوا « العيوطى » من الدار ، بعد أن
أوجعوه بضربات حامية على رجليه ، فكانَّ حمالاً ثقيلاً انزاح عن
عاتقى ، بيد أنى وددتُ لو شهدته وهو ممدد يتلقى الضربات الموجهة ،
شفاءً لنفسى منه .

وكان الشيخ « الزينى » معلمى الذى تقننى مبادئ القراءة
والكتابة ، يَفِدُ صَبْحَ كل يوم ليلقى على درسه الراتب ، وهو رجل
أعمش ، قصير القامة ، بدين كأنه كُرّة من الشحم ، كثيراً ما تأخذه سِنَّة
النوم أثناء الدرس ، فيدعنى فى الحجرة ألعب بلا رقيب . وكان مشغولاً
بالقهوة يطمع أن تتلاحق له أقداحها فى الفينة بعد الفينة ، ولذلك لا يفتأ
يناصبُ الفراشَ العِداءَ فى شأنها .

وكانت الحجرة التى نجلس فيها للدرس منظرًا لها مكانتها فى الدار ،

إِذْ أُعِدَّتْ مِنْ قَبْلِ لَيْتَاوٍ فِيهَا الْقُرَاءُ رَوَاتِبَ الْقُرْآنِ ، وَلِأَمْرٍ مَا أُهْمِلْتُ
وَأَخَذْتُ مَخْزَنًا لِلتَّمْدِيمِ مِنَ الْأَمْتَعَةِ وَالْأَدْوَاتِ ، ثُمَّ أُخْلِيَتْ بَعْدَ ذَلِكَ
لِتَكُونَ لِي حَجْرَةً مَذَاكِرَةً وَدَرَسًا .

وَبَيْنَمَا كَانَ الشَّيْخُ « الزَّيْنِيُّ » يَلْقَى عَلِيَّ يَوْمًا دَرَسًا فِي الْإِمْلَاءِ ،
وَهُوَ مَسْبِلُ الْجَفْنَيْنِ ، يَغْشَاهُ خَمُولُهُ ، إِذْ سَمِعْتُ وَقَعَ خَطَا وَئِيدَةً ثِقَالٍ
تَصْعَدُ سَالِمَ الْمَنْظَرَةِ ، فَعَرَفْتُهَا عَلَى الْفُورِ ، وَصَحْتُ مُزْعَجًا : أَخِي « الْبُكَّ » !
وَاهْتَزَّ الشَّيْخُ « الزَّيْنِيُّ » فِي مَقْعَدِهِ ، وَفَتَحَ عَيْنَيْهِ مَا وَسَعَهُ أَنْ
يَفْتَحَهُمَا ، وَأَخَذَ يَمْسَحُ لِعَابِهِ الْمَتَسَائِلَ عَلَى جَانِبَيْ فَمِّهِ ، ثُمَّ هَبَّ وَاقْفًا ،
وَأَنْدَفَعَ مَهْرُولًا نَحْوَ الْبَابِ . وَرَأَيْتُ أَخِي قَادِمًا ، وَالشَّيْخُ يَنْحَنِي
عَلَى يَمِينِهِ يَصَافِحُهُ ، ثُمَّ تَقَدَّمَ وَجَلَسَ عَلَى الْمُسْكَاةِ ، وَأَشَارَ إِلَى مَعْلَى أَنْ
يَجْلِسَ عَلَى الْكُرْسِيِّ ، غَيْرَ بَعِيدٍ مِنْهُ ، فَامْتَثَلَ الشَّيْخُ ، وَجَلَسَ
جِلْسَةً وَقَارًا .

وَسَعَلَ أَخِي سَعَلَتَهُ الْمَأْلُوفَةَ ، ثُمَّ قَالَ :

لِي مَعَكَ حَدِيثٌ فِي شَأْنِ الْوَلَدِ « سَامِي » . . .

فَرَجَفَ قَلْبِي ، وَسَارَقْتُ النَّظَرَ إِلَى الشَّيْخِ « الزَّيْنِيِّ » فَلَمَحْتُ

شَفْتَيْهِ تَهْتَزَّانِ بِلَا كَلَامٍ ، وَاسْتَأْنَفَ أَخِي قَوْلَهُ :

لَقَدْ آنَ أَنْ نُلْحِقَ « سَامِي » بِالْمَدْرَسَةِ . . . فَقَدْ أَوْفَتْ سِنَّهُ عَلَى

التاسعة ، وموعدُ افتتاحِ الدراسة بعدَ شهر ، فهل لك أن تُعدّه لذلك ؟

فأجاب الشيخ وهو يدعك يديه :

يمكنك يا سيدي أن تعوّلَ عليّ ، وسترى ما يسرُّك إن شاء الله .

— هذا هو المأمولُ فيك ، ولن ننسى أن نجزيكَ على الجميل

بالجميل ...

— خيرُكَ فيّاض يا سيدي « البك » ، لا حرّماناً اللهُ عطفك

الكريم ...

وما عتَمَ أخى أن نهض مشيعاً بالإجلال ، وصرّفنى المعلم قبل

انتهاء فترة الدرس ، بحجة أنه ماضٍ يبحث عن كتب الإعداد للمدرسة ،

فانطلقتُ والأفكارُ تلتطمُ في رأسي ، وقصدتُ حجرة « بشيرأغا »

فأرأيتُه جالساً على حَشِيَّةٍ يبيءُ قهوته ، وكانت الشيخوخة قد أقعدته

عن العمل منذ زمن ، فلزم حجرتَه لا يبرحُها إلا إذا كُلفَ عملاً ذا

شأن . فجاستُ بجوارهِ صامتاً أرقبُه ، وانبعثتُ من القهوة رائحة زكية

حين جعل يَضْبُها في القدح ، فقلت له :

ألا تُذيقني جرعةً من قهوتك هذه ؟

فرماني بنظرة شزراء وقال : عيب أن تطلب مني ذلك يا ولد ...

فقلت مستدرِكاً : لن أطلب منك ذلك ... لا تعضب !

- ومرت هنيئة صمت ، ثم سألتُ « الأغا » :
- ألم تدخل مدرسةً في حياتك يا عم « بشير » ؟ ...
- فاحمرتُ حدقتاه ، وزمجر قائلاً :
- مَنْ أخبرك أنى تعلمتُ فى المدارس يا قليلَ الحياء ؟
- لماذا تشتمنى ؟ أفى سؤالى ما يسوءك ؟
- وأقبلتُ عليه ألاطفه ، معتذراً إليه ، وقلت :
- سألقُ أنا بالمدرسة بعد شهر .
- فانفجر « الأغا » ضاحكاً ، وقال :
- لقد آن الأوان إذن لتدخل السجن !
- فرتوتُ إليه ، وقد اعترفتى بهتةً ، وقلت : وهل المدرسة سجن ؟
- أو كنتَ تحسبها جنة ترتع فيها وتمرح ؟
- فنكستُ رأسى لحظةً ، ثم رفعتُ إليه بصرى ، وأنا أقول :
- وهل المنزل جنة ؟ ستكون المدرسة خيراً لى على أية حال .
- عجباً لك ...
- حسبى أنى سأخلص من سوء معاملة أخى لى .
- إنه يرئيك .
- بل يكرهنى ... وإنى كذلك أكرهه !

وشعرتُ بَعْتَةً أَنْ مَا تَفَوَّهْتُ بِهِ إِثْمٌ كَبِيرٌ ، فَاجْتَذَبْتُ يَدَ « الْأَغَا » ،
وَوَطَفِقْتُ أَقْبَلِيهَا ، وَالْحِجُّ عَلَيْهِ فِي الرَّجَاءِ أَلَا يُظْهِرُ أَخِي عَلَى شَيْءٍ مِمَّا دَارَ
بَيْنِي وَبَيْنَهُ ، فَطَيَّبَ خَاطِرِي ، وَأَنَالَنِي حُسْوَةً مِنْ قَدَحِ الْقَهْوَةِ ، وَهُوَ
يَتَضَاحِكُ قَائِلًا : اشْرَبْ قَلِيلًا لِتَهْدَأَ نَفْسُكَ !

فَتَنَاوَلْتُ الْحُسْوَةَ ، وَحَثَّتُ إِلَى الْحَدِيقَةِ خُطَايَ .

٢

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ ، سَمِعْتُ مِنْ زَوْجِ أَخِي أَنْ « إِجْلَالَ هَانِمٍ »
وَحَفِيدَتِهَا « تَهَانِي » عَادَتَا مِنْ « اسْتَانْبُولِ » وَأَنْهُمَا اسْتَزَوْرَانَا عَمَّا قَلِيلٍ .
وَكَانَ يَطِيبُ « لِإِجْلَالَ هَانِمٍ » إِذَا مَا حَلَّتْ ضَيْفَةً عَلَيْنَا أَنْ تُتْمِضِيَ
بَيْنَنَا أَسْبُوعًا أَوْ أَكْثَرَ ، فَتَلَقَيْتُ هَذَا النَّبَأَ بِهَيْزَةٍ اغْتِبَاطٍ وَسُرُورٍ .

وَبَيْنَمَا أَنَا فِي حَجْرَتِي يَوْمًا أَلْعَبُ ، إِذْ تَنَاهَتْ إِلَى ضَوْءِ مَرْكَبَةٍ
تَجُوزُ فِنَاءَ الْبَيْتِ ، فَيَرَوَاتُ إِلَى النَّافِذَةِ ، فَرَأَيْتُ رَكْبَ « إِجْلَالَ هَانِمٍ »
يَتَهَادَى نَحْوَ بَابِ الْحَرَمِ ، وَأَمَامَ الْخَيْلِ سَائِسَانِ يَرْفُلَانِ فِي الْمَلَابِسِ
الْمُقْصَبَةِ . أَمَا السَائِقُ فَكَانَ فِي حُجَّتِهِ الرَّسْمِيَّةِ ، وَبِجَانِبِهِ « فَيروز آغا »
مَرْتَدِيًّا لِبُوسَةِ الْأَسْوَدِ الَّذِي لَمْ يَسْتَبْدِلْ بِهِ زِيًّا طَوَّلَ حَيَاتِهِ . وَمَا هِيَ

إلا أن نزلت « إجلال هانم » من المركبة ، ملثمة الوجه بالغلالة الشفافة البيضاء ، لا يبدو منها غير عينيها البراقعتين الصغيرتين تقلبهما في رزاة وتوقر . وتبعتها حفيدتها « تهاني » في ثوبها الناصع البيض تخبط في تائق وخيلاء ، وتنقل قدميها على محاذرة واحتراس ، كأنها تخشى ملامسة الغبار ومعابثة النسيم . فببطت الدراج مسرعاً إلى البهو الكبير أستقبليهما ، فما إن بلغت مسامعي خطوات القادمين حتى ألفتني أتواري خلف إحدى الستائر ، ودخلت « إجلال هانم » البهو ، وثيدة في مشيتها النبيلة ، وبجانبيها زوج أخي آخذة بيد « تهاني » ، تحيط بالجمع شردمة من الخادמות ، يتقدمين « فيروز أغا » حاملاً لفيفة ضخمة .
وسرعان ما تلفتت زوج أخي ، ثم قالت :

أين « سامي » ؟ لتذهب إحداكن لاستدعائه على الفور .

فلم أجد مناصاً من الخروج ، وأثار ظهوري من فحبي ضجة ضحك ودعابة ، فتقدمت من « إجلال هانم » وانحيت أقبليدها ، تلك اليد البضة الموردة التي تشبه في نعومتها ملمس الحرير ، ثم انثيت إلى « تهاني » فصاحتها دون أن أنبس .

ودخلنا جميعاً قاعة الزوار ، وبعد هنيهة قدم أخي ، فوقف خلف الباب يحيي الضيفة ، فدنت هي من الباب تبادلته التحية ، وجرى بينهما من مقتضب الحديث ما يقتضيه المقام .

وعادت « إجلال هانم » إلى مجلسها ، فعمدت إلى الليفة التي كان يحملها « فيروز أغا » وجعلت تعالج حل رباطها ، فمالت « تهناني » على أذني تهمس : تلك هدايا لكم .

وظفت أراقب « إجلال هانم » في شغف ، وهي تحل الرباط ، فلما تفتحت الليفة أسرع إليها « تهناني » تذبذب وتفتش ، لا تبالي ما ترميها به جدتها من زجر وانتبار . ثم أفلحت في استخراج هديتي ، وجاءتني بها على عجل ، وهي تقول :

انظر . . . حافظة كتب ، مؤشاة بالقصب . . .

ونادتنى « إجلال هانم » فلبيتها طاعماً ، فناولتنى علبة من الحلوى ، فقبلت يدها شاكرًا ، وانصرفت من ساعتى مع « تهناني » إلى الحديقة ، وقد أخذت يدها فى يدي ، وانطلقنا نتواهب مريحين ، وسألتنى « تهناني » : هل أعجبتك الحافظة ؟

— أعجبتنى جدًّا

— ستضع فيها كراسات الشيخ « الزينى » .

— بل كراسات المدرسة .

— المدرسة ؟

— سألق بها بعد شهر .

— أمسرور بذلك أنت ؟

— لستُ بمسرور ولا بمحزون .

وكنا قد اقتربنا من الظلّة بجوار النافورة ، فتلفتتُ « تهاني » ،
ومضت تهشُّ بيدها على الطير السابح في الماء ، وتصفقُ طرفاً قائلة :
يلوح لي أن الحديقةَ كما تركناها من قبل ، زهراء غناءً

ماقتى البستانيّ يرعى الإوزَ والبط .

ودلفنا إلى الظلّة ، وهمنا بأن نجلس على المقاعد الممدودة ، وإذا
« تهاني » تُحجِّم عن الجلوس ، وتنظر إلى قائلة :

أليس لديك منديل نظيف ؟

— لدى .

وأخرجتُ من جيبى منديلاً بسطتهُ على مقعدها ، فجلستُ وأخذتُ
مكاني بجانبها ، وفتحتُ علبة الحلوى ، وبدأنا نأكل مما تحويه .

وبعد هنيهة صمت ، قالت « تهاني » :

لا أرى « العيوطى » يلازم البط والإوز كعهدي به .

فشعرتُ بارتباك ، وما أسرع أن تماككتُ ، وقلتُ في غيرمبالاة :

لقد طردناه .

— لماذا ؟

— لم يكن يحسن القيام بشيء

وجعلتُ أسألهما عن رحلتها إلى « استانبول » وانسرحنا في أحاديثِ عذاب ، كانت فيها تقصُّ عليّ ما لقيتُ من حفاوة في بيوت أسرياء الترك ، وما سمعتُ من إشادة بها وإطراء . ثم أخذت تصف لي ما شهدتُ هنالك من مناظر جميلة ومباهج فائقة ، لا نظير لها في « مصر » من أقصاها إلى أقصاها .

وسألتهما في أثناء الحديث :

ما هو أروع شيء وقعت عليه عينك . .

فقلت ، وهي متحمسة مهتاجة النفس : الصدر الأعظم !

فأسرعتُ أقول في تطلع وتشوّف : رأيته ؟

فابتسمتُ في استخفاف وقالت : ما إن دخلتُ عنده ، حتى حملني

بين يديه ، وقبّلني في بشاشة وترحيب ، ولكنني دفعته عنى وقلت له :

إن شاربك يشوكني ، هلا شدّبت أطرافه ؟

— أحقاً جرّوتِ عليّ أن تقول ذلك له ؟

— لقد أغرق في الضحك ، وربّت خدي ، وقال لي : في زيارتك

التالية لن يشوكك شاربى يا صغيرتى الحسنة !

انطلقتُ أسرَّحَ الفكرِ لحظاتٍ فيما أسمعُني إياه « تهاني » من
هذا النبا الخطير ، وسألتها : ما شكلُ الصدرِ الأعظم ؟
فقالَت وهي تستعين بإشارتها على التعبير :

ياله من رجل . . . قامة فارعة ، وجسم ضخم ، ووجه مُطَهَّم ،
وعينان ينبعث منهما وميضُ العزة والكبرياء .

ولما قفنا إلى المنزل ، ذهبت « تهاني » إلى جدتها في حجرتها
التي أعدناها لها في الطبقة الأولى ، أما أنا فصعدتُ إلى حجرتي لأضع
حافظة الكتب وعلبة الحلوى ، وفيما كنتُ مارًّا بحجرة زوج أخي طرق
أذني لغط ، فدنوتُ من الباب أسترقُ السمع ، فإذا أخي يقول :
لا أحبُّ هذه الهدايا التي تؤدى ثمنها أضعافاً مضاعفة !

وكان فيما يقول عنيفَ اللهجة ، ففررتُ إلى حجرتي ، وأنا أشعر
بألم دفين ، ووثبتُ إلى ذاكرتي أشناتٌ من الأحاديث كانت تتراعى إليَّ
في شأن ما تكابده « إجلال هانم » من متاعبَ ماليَّةٍ ثقال .

لَبِثْتُ أَمْضَى أَوْقَاتِي مَعَ « تَهَانِي » نَرْتَعُ وَنَلْعَبُ ، حَتَّى إِذَا قَدِمَ
الشَّيْخُ « الزَّيْنِي » لِيَلْقِنِي دَرْسَهُ الرَّاتِبِ إِعْدَادًا لِدُخُولِي الْمَدْرَسَةَ ، لَمْ تَدْعَنَا
« تَهَانِي » فِي خَلْوَتِنَا نَقْرَأُ وَنَسْتَذْكَرُ ، بَلْ كَانَتْ تَقْتَحِمُ الْحِجْرَةَ وَتَفْسِدُ
عَالِمَنَا الْمَجْلِسَ بِمَا تَبْعَثُهُ مِنْ تَضَاحِكٍ وَضَجِيجٍ ، فَإِنْ قَعَدْتُ مَدَّتْ قَدَمَيْهَا
فِي وَجْهِ الشَّيْخِ ، فَلَا يَفْتَأُ يَعْنَفُهَا فِي تَضَاقِيْقٍ ، فَتَخْرُجُ مُغْضَبَةً ثَائِرَةً ،
وَتَشْكُوهُ إِلَى الْخُدْمِ ، مَدْعِيَةً عَلَيْهِ أَنَّهُ يَنْهَالُ عَلَيْهَا ضَرْبًا وَقِرْصًا ،
وَتَأْتِي إِلَّا أَنْ تَسْتَشْهَدَ بِي ، فَلَا أُجِدُّ إِلَى تَكْذِيبِهَا وَالْإِنْكَارِ عَلَيْهَا
مِنْ سَبِيلٍ !

وَكثِيرًا مَا كَانَ يَطِيبُ لَنَا الْمَكْتُفُ فِي الْحَدِيقَةِ نَتَصَيَّدُ الْعَصَافِيرَ
بِالنَّبَالِ ، وَنَحْتَالُ نَتَسَلَّقُ الْأَشْجَارَ وَالْأَسْوَارَ .
وَمَرَّةً لَحِثُ « تَهَانِي » عُنُقُودًا يَانَعًا مِنَ الْعَنْبِ مَتَدَلِيًا مِنْ عَرِيْشِ
الْكُرْمِ ، فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ، وَقَالَتْ : مَا أَجْمَلُ هَذَا الْعَنْقُودُ !
فَقُلْتُ لَهَا وَقَدْ فَطِنْتُ إِلَى رَغْبَتِهَا : سَأُنَادِي الْبَسْتَانِيَّ يَقْطِفُهُ لَكَ .
فَنظَرْتُ إِلَى نَظْرَةِ اسْتِنْكَارٍ ، وَقَالَتْ : مَنْ أَخْبَرَكَ أَنِّي أُرِيدُهُ ؟
فَدَهَشْتُ مِنْ لَهْجَتِهَا ، وَمَا عَنَّمْتُ أَنْ تَجْهَمَ وَجْهَهَا . . . وَغَشِينَا
الصَّمْتَ بَعْضُ الْوَقْتِ ، ثُمَّ قَالَتْ « تَهَانِي » كَأَنَّهَا تَحْدِثُ نَفْسَهَا :

طلما قطف لي « إحسان » بن « فوزي باشا » بيده عناقيد أبعداً
من هذا العنقود منالاً !

فاعترتني حيرة وضيق ، ورأيتُ « تهاني » تهزّ رجلها في خيلاء
وازدراء ، فغمغمتُ قائلاً : ولكن أخى . . . أخشى أن يباغتنى . . .
شدّ ما نهاني عن العبث بفاكية الحديقة !

— إن « إحساناً » لا يخشى أخاه ولا أباه إذا رغبتُ إليه في شيء !
ونظرتُ مُحَنَّقاً إلى عُنُقود العنب ، ثم عقدتُ يديّ خلف ظهري ،
ومشيت في خطوات عابثة أتكلف الهدوء والسكينة ، ثم استندتُ إلى
إحدى قوائم الظلّة ، وطفقتُ أتشاغل بعود انتزعته من شجرة النبق ،
أقشيره وأكسره . وكان الوقت يمرّ بي في بطاء شديد ، والتفتّ التفتاة
خفية إلى « تهاني » ، فألفيتها ما برحت تهزّ قدميها وتحدّق في الأفق
شامخة الأنف . ثم لاحظتُ أنها تسارق النظر إليّ ، وتلاقت عينانا ،
دون عمد ، فانفجرنا على الأثر ضاحكين مقهقهين ، وسرعان ما وجدثني
أقصد إليها ، وأخذُ مجلسي بجوارها ، فإذا بها تدغدغني على حين غفلة ،
فقفزتُ ضاحكاً ، وعدتّ هاربة ، فعدوتُ خلفها بما وسعني من جهد ،
ولذّ لنا الطواف بالحديقة ، نتضاحك ونتصايح ، ثم رجعنا إلى مكاننا
من الظلّة ، وتهالكنا على المقعد ، وأنفاسنا تتلاحق . . .

وقالت « تهناني » : لم تستطع اللحاق بي .
فلم أنكر عليها ما تدّعي ، وما كان يُعِينِي اللحاقُ بها لو أردتُه .
وعلى حين بغتة قمتُ إلى عريش الكرم ، وهمتُ أن أتسلقه ،
وأدركتُ « تهناني » ما أنا فاعل ، فصاحتُ بي تمنعني ، فأصررتُ على
إنفاذ ما هممتُ به . ووافقتني شجاعة حافزة ، فضيتُ أَقْطِفَ العنقود ،
ثم هبطتُ به إلى الأرض ، فَشَمَائَتِي غبطة لا عهدَ لي بها من قبل ،
وجلستُ و « تهناني » بجوار النافورة نأكل من العنقود ، ونرمي للإوَز
والبط بما لا نستطيع من حبات العنب ، وَخَيْلَ إِلَى أَنِي لَمْ أَطْعَمْ فِي
حياتي فاكهة لها لذة هذا العنقود !

وكان أخي قد اشترى لي مركبة صغيرة بِمُهْرٍ ظريف ، لكي
تكون لي في ذهابي إلى المدرسة وأوتيتي منها ، واختار لها السائس
« مديولي » سائقاً .

وقد أجاز لي أخي في هذا اليوم أن أخرج بالمركبة أتنزّه أنا
و « تهناني » . فارتديتُ حلقى القشبية ، وأمسكتُ بيمنى العصا التي
أهداها إليّ بائع الملابس حين اشتريتُ الحلة ، واكتستُ « تهناني »
ثوبها الحريري الأبيض ، ولبستُ قَفَّازاً وحذاءً على لون الثوب ،
وَعَصَبْتُ شعرها الفاحمَ برباط حريري ناصع البياض ، وتعطرتُ بعطر
جدتها الفاخر ، وخرجتُ معي إلى الفِنَاءِ رائعة الزينة متألقة المحيياً ،

تنظر إلى نفسها ، ثم تطوف بعينها فيما حولها كأنها تستدير الإعجاب والإطراء . وألقينا نهر المركبة يسهل ويتوثب في حمية وفتوة ، ضارباً الأرض بحوافره . واعتلى السائق « مدبولى » مقعده فى جلباب أزهر ومِعْطَفٍ سابغ ، فالتفتت إلى « تهانى » ، وقالت مهتاجة :

أهذا الرجل الذى يرتدى الجلباب هو سائق المركبة ؟

— إنه « مدبولى » السائق الخاص لمركبتى .

فدقتُ بقدمها صائحة :

لا أكون فى مركبة يسوقها رجل فى جلباب !

ولحتُ الدمعَ يتحير فى عينيها ، فجمعتُ أرضها جبهدى ، فلم تلبث وهمتُ بالعودة إلى الدار ، فأمسكتُ بها ، وأدرك « مدبولى » عانة ما بيننا من نزاع ، فنزل عن المركبة مسرعاً ، وقصد إلى حظيرة المركبات وماهى إلا أن خرج منها عليه حاةٌ رئيسه « الأسطى عثمان » . واتجه إلى « تهانى » يقول لها : أيعجبك هذا الزىُّ يهاهم ؟

ومضتُ بنا المركبة إلى الحارة ، وجازتها إلى الشارع ، ومالت « تهانى » على أذنى هامسة : يجب أن تضع ساقاً على ساق ، وأن تجلس جلسة الأمراء . . . ألا ترى الناس يرمقوننا بعيونهم ؟

فابتسمتُ لها ، ثم تعاظمتُ فى مجلسى ، ونفختُ شدى !

٤

وأسفر صباح اليوم الموعود ، يومَ الإلتزام في سلك الدراسة ،
فاستيقظتُ من النوم بُكْرَةً ، يستبدُّ بي الضيق . وجعلتُ أرتدى حلتى
تأهباً للخروج ، وكان « مدبولى » قد أعدَّ المركبة الصغيرة لِتُقَلِّنى إلى
المدرسة ، فركبتُ صامتاً لا أنبِس ، وسارتُ بي المركبة تخرق الشوارع
والدروب ، وأنا مستغرق في وجوم وتفكير ، تتراءى لى أشباح مبهمة
من مشاهد المدرسة والمعلمين والتلاميذ .

وألفيتُ المركبة تُمسِكُ عن المسير ، فرفعتُ بصرى فإذا أنا تُجَاهَ
مبنى عتيق أقربَ ما يكون شَبْهاً بالدار التى تقيم فيها . ورأيت « مدبولى »
يشير إلىَّ أن أنزل ، وهو يقول : توكلَّ على الله .

فأجبتُه شارداً النظرات : أهذه هى المدرسة ؟

ونزلتُ عن المركبة ، آخذاً طريقى إلى الباب ، فواجهننى البوَّاب ،
وهو يلوِّح بكفيه الواسعين ، مُهَيِّباً بالتلاميذ أن يسارعوا إلى الدخول في
صوت جهير ، تتجلى فيه الإمرة والسيطرة .

ودخلتُ مع الداخلين إلى الفناء ، فألفيتُ حديقةً فسيحة سامقة
الأشجار ، والتلاميذُ خلالها في تصايح وتلاعب وتجوَّال . فوقفْتُ

وحدى مستنداً إلى جذع شجرة ، أراقب من هم حولي من الرفاق .
وطالت وقفتي وأنا على هذه الحال ، فأحسست في دخيلة نفسي هاتفاً
يدفع بي إلى الهرب !

وفيا أنا جامد في وقفتي ، عرّنتي هزة مفاجئة زلزلت كياني ، فقد
تتابع دقات الناقوس ، تدوّى في الفضاء بصوت مرهوب . وما كاد
الناقوس يمسك عن صليله ، حتى تعالي بعده صوت جهوري أجش ،
يأمر التلاميذ أن يننظموا في الصفوف ، فهِرَعْتُ آخذاً مكاني في صف
التلاميذ الجدد . وكان صاحب الصوت الجهوري ما برح يردد أوامره
متلاحقة لا تكفي ولا تشتفي ، على حين يتراقص شاربه غزيراً مسنون
الأطراف .

ووجدتني أسير صفّاً من التلاميذ ، نضرب الأرض بأقدامنا في
خطوات راتبة ، كأننا ثلاثة من الجنود يؤدون تمرينهم العسكري .
وفي هذه اللحظة وحدها أيقنتُ بأنني أبتدى منذ اليوم عهداً جديداً
من حياتي ، لا أعرف له كُنْهاً ، ولكنه على أية حال يختلف أيما اختلاف
عما سلف لي في الحياة من عهود .

واحتواني الفصل مع الرفاق ، فأخذوا مجالسهم على المكاتب
مثنى مثنى ، وجلستُ مع واحدٍ من هؤلاء الرفاق على مكتب يلتمع
طلاؤه الجديد .

وما أسرع أن تمَّ بيني وبين جليسى تعارف وثيق ، فانبرى فى
جرأة ومصارحة يُفَضِّى إلى من خاصة شأنه ومن أحوال أسرته بما لم
أكن أتوقع أن يُذِيعه لى ، على حداثة عهده بى .

ونبتت بينى وبين هذا الرفيق ألفة محببة ، فلاطفته ببعض
ما حشوت به جيبى من حلوى أفانين .

وآذنت الحصّة الأولى بالانتباه ، وتبعته الحِصص الأخرى ،
وكانت على تعددها متشابهة ، إلا فيما كان من اختلاف المعلمين .

وانقشعت عن نفسى تلك الرهبة التى كنت أعانيها ساعة قدمت على
المدرسة ، وما خرجنا فى فترة الغداء إلى الحديقة ، لزمتم رفيقى « خيرى »
الأعبه بكرته الصغيرة . وكنا على مائدة الغداء جنباً إلى جنب ،
واسترعى انتباهى ضابطاً دائب الحركة ، ضاحك الأسارير ، ينادونه باسم
« محي الدين افندى » ، جعل يعلمنا أدب المائدة فى اغتراف الطعام ،
وتوزيعه ، وتناوله . فأنسنا به ، وامثلنا لتوجيهه ، فى رضا وإقبال .

وكاد اليوم أن ينتهى بسلام ، لولا ذلك الحادث الذى تمخضت
عنه الحصّة الأخيرة . . . إنها حصّة الإملاء ، المعلم فيها رجل عبوس
القسما ، متمم النظرات ، لا يفتأ يهدير وي زمزم ، ولا يمل إصدار أمره
إلينا أن نسكت وإن كنا جميعاً فى سكوت !

ولاحت منى لفته إلى رفيقي « خيرى » فمحتته يغضن من جبينه ،
ويعوج شذقيه ، ويمط شفتيه ، كأنه يحاكي سحنة المعلم ، سخرية به ،
وزراية عايه . وكان المعلم وقتئذ مصروفاً إلى التصحيح فى إحدى
الكراسات ، مكباً عليها ، لا يكاد يحيد عنها بصره ، فانسلت من
فى ضحكة على حين غفلة ، فرفع المعلم رأسه عن الكراسة ، محتقن
الوجه ، بادى الغضب ، وقال فى صوت يندر بالشر : من الضاحك ؟
فازداد الفصل سكوناً إلى سكونه ، ورفرف قلبى بين ضلوعى ، حتى
خيل إلى أن خفقاته ستكشف عن أمرى . وأعاد المعلم سؤاله ، ولكنه
لم يظفر من أحد بجواب . ولاحظت أن شفته ترتجف ، فتنصّد من
جبینى العرق ، ورأيت المعلم يخطو خطوة حاسمة ، وهو يقول :
إذا لم يخبرنى أحدكم باسم التلميذ الذى ضحك ، توليت
ضربكم جميعاً ، لا أفنت منكم أحداً .
فسمعتُ صائحاً من خلفى يقول : إنى أعرفه يا افندى .

— من هو ؟

— هذا .

وأحسستُ كأن إصبع التلميذ تخترق رأسى ، وهو يشير بها إلى .
وتوخّانى المعلم قائلاً : أنت الضاحك ؟

فاضطرب لسانى بقولٍ غير مبين ، فإذا بيد المعلم تَهَبَّط على أذنى
فتفرُّ كُها وتَعْرُ كُها ، وظل كذلك حتى قام فى ذهنى أن الرجلَ يحاول
اقتلاعها من مَنبِتِها ، وأنا أتلوِّى كاتماً ما يجيشُ فى النفس من ألم .
وتركنى المعلم ، راجعاً إلى مكانه ، وأنا أشعر بأن أذنى قد انقلبت
جُحْرَةً من النار تتضرم ، وأنها قد انخلعت من مستقرِّها وأوشكت أن
تسقط ، وجلستُ ناكسَ الرأس ، وما لبثتُ أن استبدَّ بى بكاء
كظيم ، فجعلت أفنش عن منديلى ، فلم أجده له من أثر . فقال على رفيقى
« خيرى » يدسُّ منديله إلى .

وانقضت الحصاة ، وتهبأنا لمبارحة الفصل ، فوجدت « خيرى »
يشير إلى أحد الرفاق ، وهو يقول لى :

انظر إلى هذه البطةِ التى تتأبطُ كتباً!

فالتفتُ حيث أشار ، فإذا هو يقصد « الزغبى » ذلك التلميذ الذى
وَشَى بى عند المعلم ، فنالتى من جرَّاء وشايته ما نالتى من عقاب .
وسدَّتُ إلى « الزغبى » نظرة شزرء ، وأنا شامخ الأنف ، ثم
ملت على رفيقى ، فانطلقنا معاً ضاحكين فى سخرية واستهزاء .

وما هى إلا أن راغى « الزغبى » هاجماً علينا بِجَرِّمِهِ العريض ،
وذراعيه القويتين ، وجعل يلُكْمنا فى جسارة وعنف . فأما أنا فقد

مَنَعْتَنِي الدهشة أن أَرَدَ العدوان بمثله ، وأما رفيقي فقد انبرى يُقَسِّم
أَيْشَكُونَنَّ « الزَّغبي » إلى الضابط ، وَلَيْرِينَهَ كيف تكون العُقْبَى .
بيد أننا حين مررنا بالضابط في مُنْصَرَفِنَا من المدرسة ، فطنتُ إلى
أن « خيرى » يَحْتِ خطاه ، ليتجنبَ مرأى الضابط ، كأنه لا يشهدُ
له ظلا .

وكذلك أدبرتُ عن المدرسة ساعةَ العصر ، كما أقبلتُ عليها في
رَوْتَقِ الصبح ، وأنا في كلا الوقتين منقبضُ الصدر ، مهمومُ الفؤاد .
وكان « مدبولى » على مقربة من الباب ، واقفاً بالمركبة ، يفرقع
بسوطه ، إعلاماً لى بمكانه . فقصدتُ إليه ، وصعدتُ فى المركبة ،
يغشاني صمت . فابتدرنى بقوله : كيف حالك ؟ أَلستَ مسروراً ؟

— مسرور . . .

وإذا بى أسمو بيدي إلى أذنى أَحْسَسَهَا ، على غيرِ عَمْدٍ . وجعلتُ
المركبة تسلك الطريق ، وأنا فى غمرة من صمتى ، شارداً لخطرات .
وبغثة شعرتُ بحركة على سُلْمِ المركبة ، ولحتُ يداً تتشبثُ بمدخلها ،
وما هى إلا لحظة حتى تبينتُ « العيُوطى » صبىَّ البستانى الطريد يقفز
إلى داخل المركبة ، ويأخذُ مجلسه بجانبى فى صفاقة واجتراء . فتارت بنفسى
غضاضة واشمئزاز ، ولكن سرعان ما سمعته يقول :

متى أرسلوك إلى المدرسة ؟

واستبان لي أن صوته قد اخشوشن أكثر مما كان ، وأجبتُهُ :
هذا أولُ يوم لي في المدرسة .

فلَوِي رأسه إلى الطريق ، وقذف من فمه بصقعة غليظة ، ثم مسح
شفتيه بظفر يده ، وهو يرسل ضحكة شَوْهَاء ، وقال :

أما أنا فأشتغل عند عَلاَف . . . خدمة طيبة . . . خير من بيتكم !
فشدَّ « مدبولي » عنانَ المَهْر ، يقف المركبة ، واستدار يرمي
« العيوطي » بنظرة حامية ، وهو يأمره أن ينزل من فورهِ ، ولمح
« العيوطي » سوط « مدبولي » يهتزُّ في يده ، فتكف ضحكة ساخرة ،
وقفز مغمغماً تطويه رَحْمَة الطريق .

وتابعت المركبة سيرها ، وأنا أفكر فيما صنع « مدبولي » مُعْجَباً

بموقفه العظيم .

وبلغتُ المنزل ، وما إن وطئتُ عتبةَ الردهة ، حتى استقبلتني زوج
أخي في تشوُّقٍ وحنان ، وكانتُ جالسةً هي والحاضنة « مسرات »
تنتظران أَوْبَتِي ، فارتميتُ على صدر زوج أخي وأخفيتُ فيه وجهي ،
وأنا أجدُ نفسي أعلقُ بها ، كأني ألتمسُ عندها الخلاصَ مما أعانيه ،
فرايتها تستجيب لي ، وتضمنني إليها ضَمَّةً إشفاق ، ثم إذا هي ترفع وجهي

إليها ، وتحقق في ، كأنها تستكثنه ما بطن من أمرى ، ثم قالت :

ماذا بك يا حبيبي ؟ أجبني ...

فطأطأت رأسي ، أخفيه في صدرها ، وأنا أزداد بها من تشبث ،

فسمعتها تقول للحاضنة « مسرات » :

الولد مكروب ... لا بد أن يكون قد ضربه أحد .

فصرخت باكياً أقول :

لم يضربني أحد ... لم يشدّ أذنى أحد !

هـ

لم يمضِ على في المدرسة أسبوع ، حتى انعقدت الألفة بينى وبين

« الزغبى » ، فكان هو و « خيرى » صديقى المختارين .

وحل « الزغبى » منا محلّ الزعامة ، يفرض علينا ما يرتئيه ، فنذعن

له بالطّوع . إذا خرجنا نلعب ، ألزّمنا أن نمارس ألعاباً بعينها ، وإن

لم نكن نهواها . وإذا صافى بعض الرفاق ، أو عادى منهم أحدا ، أرادنا

على أن نكون له تبعاً . وإذا لم يرقه صنيع من معلمى المدرسة ، انتصر

بنا لتأييد ما يعين له من رأى ، حين يتحدّث إلى جموع التلاميذ .

فأما « خيري » فكان لا يَمَلُّ الإِفْضَاءَ إلى بأسرار بيته وخفايا أهله . حتى تُقْلَ على سمعي حديثه ، وعجبتُ له : كيف لا يمسك لسانه عن شئونه الخاصة ؟ وكيف لا يمل التَّكْرَارَ والتَّرْدِيدَ ؟ وعلى مرّ الأيام توثقتُ بيننا عراً الصَّحبة ، فكنا على الدوام ثالثاً يسودُه الوِفَاقُ . الصَّبْحُ يجمعنا عند مركبة « محمد أغا » بائعِ الحلوى وأدوات المدرسة ، وهو رجل حادُّ اللهجة ، سريعُ الغضب ، على ما فيه من سداجة وغفلة . وكان « الزَّغْبِي » يتفنن في مشاكسته وإثارة غضبه ، حتى يلتفتَ الناس حولهما يتفرجون ويتضحكون ، ولكن سرعان ما ينتهي الأمر دائماً إلى صلح وسلام ، فيتقدم « الزَّغْبِي » ليشرِّبَ إلى رأس « محمد أغا » ، فيقبلُهُ مرات ، على حين يغمغم الرجل بقوله :

سامحُتْكَ يا بني . . . هداك اللهُ يا بُنَيَّ !

وكان هذا المنظر يقع من نفوسنا موقع الارتياح ، فلا نسأم شهوده على تَكَرُّاره .

وتعودتُ حياة المدرسة ، على تواصل الأيام ، وأصبحتُ مألوفة لى . وكان مما يجعلها حبيبة إلى ذلك الضابطُ المسمَّى « محي الدين افندى » . فقد أشعرتني بأنه أب شفيق يحنو على حنوّه على ولده . وكثيراً ما كان يفا كهنى بِصُورٍ هزلية يرَسُمُها لى بقلمه ، وذات مرّة قال لى :

إن لك أذناً تشبه أذن « سرحان » .

فقلتُ له : ومن « سرحان » هذا يا افندى ؟

فأخرج دفتره الصغير الذي كان يلزم جيبه ، وأجرى القلم في ورقة منه يميناً ويسرة ، ثم قال لي : انظر . . .

فتطلعتُ ، فإذا أنا أرى أمامي رسماً سريعاً لرأس حمار ، وسمعتُه يقول لي : هذا هو « سرحان » . . . حماري الصغير !

فأغرقتُ في الضحك ، وأنا أقول : أعندك حمار يا افندى ؟

— حمار صغير . . . حجمه شبر في شبر . . . وهو صديق بنتي « فتحية » . . . أتود أن تراه ؟

— يسرنى أن أراه .

— نذهب معاً لرؤيته بعد انتهاء الدروس .

فشمِلتني فرحة هزت أقطار نفسي ، ولكنني ما لبثتُ أن استغرقتُ في التفكير لحظة ، ثم قلتُ للضابط : وصديقي « خيري » « والزغبى » ؟

— نذهب جميعاً . . . هل تسعنا مرّة كتبك ؟

— كلّ السّعة .

وانطلقتُ أتفقد « خيري » و « الزغبى » لأزفّ إليهما البشري ،

وخيّل إليّ أن الحصص تطول أكثر مما هو مقدّر لها من وقت ، فكنتُ أزجّ بها بكل وسيلة ، وأنا ذاهبُ الصبر .

وأخيراً غادرنا المدرسة ، فأقَلَّتْنَا المركبة جميعاً إلى بيت الضابط
« محي الدين افندى » . وفي أثناء الطريق ، كان هوي مجاذب « مدبولى »
أطراف الحديث ، مُفَسِّحاً لنا مجال المعابثة والمزاح .
وسمِعْنَا « محي الدين افندى » يقول للسائق :
مكانك . . . هذا هو البيت .

وَسَبَقْنَا بالنزول من المركبة ليرشدنا إلى الطريق ، واجتازنا بوابة
عتيقة ، فاحتوانا فناء صغير تنظر إليه نوافذُ الحِجْرَاتِ ، واسترعت
عيني شجرة عجفاء ، شَدَّ إلى ساقها جحش يضرب لونه إلى الحمرة ،
فتدائنا منه نتطلع في شغف ، ولكن الجحش لم يَأْبَهُ لنا ، فقد كان
مصروفاً إلى برسيمه يعتلف ، فصفق « محي الدين افندى » منادياً :
« فتحيّة » .

وما هي إلا أن رأيناها تنزل إلينا ، فلما أبصرها الجحش ، رفع
إليها رأسه ، وجعلَ يُّقَلِّبُ لها شفثيه ، كاشفاً عن أسنانه العاجية
المرصّنة ، فشمَلتْنَا فورة من الضحك .

وتقدم « محي الدين افندى » يقول لابنته : هؤلاء ضيوف ظرفاء ،
فالعابوا معاً . . . واحرصي على أن تكوني ذات لطف وذوق .

وأذْبَرَعْنَا يصعد الدَّرَج ، وبقينا على مقربة من الجحش تتوسّمه ،
وشهدنا « فتحية » تمدّ يدها بقطعة من السكر إلى « سرحان » فما
أسرع أن التهمها ، والبشر يلمع في نظراته .

كانت « فتحية » صبية سمراء ، أنيسة المَحْيَا ، يرفُّ على ثغرها
ابتسام . وكانت نظيفة الثوب ، عليها ميدعة أنيقة حسنة الطراز ، تتراعى
بين كتفيها ضفيرة يزيئها شريط وردي .

وأطبق بيننا صمت ، فرُحْتُ أرجع البصر بين رفيقٍ ، فإذا نحن
الثلاثة على حال سواء من السهوم والجود .

واشدُّ تعجبي من « الزغبى » كيف خذَلته جرأته المعهودة ،
وكيف خائنه ذلاقة اللسان ؟

وشعرتُ بأن موقفنا في غاية من الحرج ، وأننا في حال لا نُغْبَطُ
عليه . ولحْتُ « فتحية » تخالسنا النظرات بين حين وحين . وبعثت
دنت من الجحش تقرُّصه ، فإذا نحن نسترسل في تضحك . وتحمستُ
الفتاة ، وأغراها ما رأته من تضحكنا ، فجعلتُ توالى قرص الجحش في
نَشْطَة ومراح .

وألفيتني أقرب من الفتاة قائلاً : لماذا تقرُّصينه ؟
فأجابتنى : لأنى أحبه .

وشعرتُ بأن يدي تنبسط إلى رقبة الجحش ، أخذوا حدّوا الفتاة
في القرص ، فتبعَتْنِي يد « الزغبى » ويد « خيرى » تصنعان كما أصنع ،
فرفع الجحش رأسه إلينا ، وفي عينيه دهشة وعجب ، وجعل يضرب
الأرض بحافره ، يعلن تأفّفه ، فلم نكثر له ، وتمادينا في قرصه ،
والطرب يهزنا جميعاً .

وأخيراً عِيلَ صبر الجحش ، فأطلق من حلّقه بغتة نهيقاً عالياً ،
تفرّغنا منه كل التفرّغ ، وتفرقنا عنه في صدّخ وضجيج .

والتفتت إلينا « فتحية » تقول : أتحبون أن تعتلوا ظهره ؟

فصحنا معاً : نعم ، نعم !

فقابلت : سأريكم كيف تركبونه .

ثم فكّث وثاق الجحش ، وما أسرع أن استوت عليه في مهارة
وخفة ، ودارت به في الفناء دورة ، وعيوننا بها موصولة ، ثم نزلت عن
الجحش ، وأشارت إلى أن أتقدم . ولاحظتُ أن « الزغبى » يريد
السبق إلى الركوب ، وكنتُ على وشك أن أدع ذلك له ، ولكن
باعثاً لا أعرف مآتاه ، دفع بي نحو الجحش ، فامتطيته في جسارة
أدهشني أنها تواتيني ، وبدا على « الزغبى » ضيق لم يستطع أن يكتمه ،
فأما أنا فقد شاع في نفسى حبور وغبطة ، ودرتُ بالجحش دورتين في

فِنَاءَ الْبَيْتِ ، وَالْفَتَاةَ نَاطِرَةً إِلَى ، تَهَيَّأَتْ وَتَصَفَّقَتْ . وَمَا كَدَتْ أَنْخَلِي
عَنْ ظَهْرِ الْجَحْشِ ، حَتَّى وَجَدْتُ « خَيْرِي » يَخْتَلِفُنِي عَلَيْهِ ، فَيَدُورُ
دَوْرَتَهُ ، فَلَمَّا نَزَلَ شَخَّصْنَا إِلَى « الزَّغْبِيِّ » فَإِذَا هُوَ وَاقِفٌ لَا يَتَحَرَّكُ ،
فَأَهَابَتْ بِهِ « فَتْحِيَّةٌ » أَنْ يَأْخُذَ نَوْبَتَهُ ، فَأَبَى ، وَقَصَدَ إِلَى الشَّجَرَةِ
يُرْتَكِنُ إِلَيْهَا ، وَهُوَ يَهَيِّزُ قَدَمِيهِ .

وَفِي تِلْكَ الْأَثْنَاءِ بَدَأَ « مَحْيِي الدِّينِ افندي » يَحْمِلُ صَحْفَةً مَلَّتْ
بِالنَّقْلِ مِنْ بَنْدُقٍ وَجَوْزٍ وَلَوْزٍ ، وَلَا حِظَّ الرَّجُلِ أَوْلَ وَهَلَةَ أَنْ « الزَّغْبِيُّ »
مَعْتَزِلٌ عَابِسُ الْوَجْهِ ، فَجَذِبَهُ مِنْ يَدِهِ يَقْرَبُهُ إِلَيْنَا فِي مَلَاظِفَةٍ . ثُمَّ أَخَذَ
يُوزِعُ عَلَيْنَا النَّقْلَ ، وَيُدْعُونَا إِلَى التَّنَافُسِ فِي أَكْلِهِ ، مَتَفَنِّئًا فِي الدُّعَابَةِ
وَالْمَفَاكِهِ .

وَوَضَّعَ السَّائِقُ « مَدْبُولِي » يَنْبِيئِي إِلَى أَنْتِي أَطَلْتُ التَّغْيِبُ ، وَأَنَّهُ
يَخْشَى مِنْ ذَلِكَ قَلَقَ الْأُسْرَةِ عَلَيَّ . فَتَرَكْنَا الْبَيْتَ ، وَأَنَا فِي نَشْوَةٍ مِنْ
تِلْكَ الْجُلُوسَةِ الطَّيِّبَةِ الْأَنْيَسَةِ الَّتِي نَعَمْتُ بِهَا السَّاعَةَ .

٦

تكررت زوراتنا لبيت الضابط ، حتى استوثقت صداقتنا « لفتحية » .
وألف الجحشُ مرَّ أنا ، فكنتُ أغدق عليه قطع السكر ، وكلما قدِّمتُ
عليه رفع إلى رأسه ، وراح يقلب شفثيه ، ويكشف عن أسنانه المرصَّصة ،
فألقمه قطع السكر في مسرَّة وارتياح .

وكان « الزغبى » لا يفتأ يحاول أن يأخذ بيننا مكان الرياسة في
بيت الضابط ، ولكن التوفيق لم يسعفه يوماً ، فكان يخيب في سعيه
مرةً بعد مرة ، حتى لقد جعلت شخصيته تتضاءل وتتقاصر ، فأصبحت
هذه الزورات لا تطيب له ، ولا تقع منه موقع الرضا .

وفي أصيل يوم كانت المركبة تمضى بي عائداً من المدرسة إلى
منزلى ، فباغتتني رغبة في زيارة « فتحية » ، ووجدتني أميل على
السائق « مدبولى » قائلاً له :

مِل بنا إلى بيت الضابط لأرى الجحشَ « سرحان » .

فنظر إلىّ في ابتسام ، وفرقع بسوطه ، وقال :

أمرك يا « سامى بك » !

وبينما نحن فى الطريق ، نتوخى بيت الضابط ، لاح فى مخيلتى

طيف صديقٍ « الزغبى » و « خيرى » . . . فسألتُ نفسى : أكان
علىَّ أن أوخر زورتي اليوم ، حتى أخبرهما فأصحبهما غدا ؟
وهممتُ أن أرغبَ إلى السائق « مدبولى » فى أن يَحيدَ بالمركة
إلى منزلى ، ولكننى لم أفعل .
و بلغتُ المركةَ بيتَ « فتحية » فرأيتها بالبواب ، وما كادت تلمحنى
حتى هُرعتُ إلىَّ ، وهى فرحانة طروب .
وسمعتها تسأل : أين « خيرى » و « الزغبى » ؟
فعاجلتني ربكة ، وجعلتُ أخلطُ فى الجواب ، وأزورّ المعاذير ،
فاجتذبتني من يدي ، وهمستُ لى :
نلعب وحدنا . . . هذا أحسن !
فصادف جوابها هوى من نفسى .
وسارتُ بى إلى فناء البيتِ نُحَيِّ « سرحان » . . . وأظننا صممتُ ،
على غير ما أَلِفناه معا ، إذ كانت هذه أولَ مرة نترأى فيها وحدنا
لا يشرُكنا فى المجلس أحد .
وبعد فترة قلتُ لها : لماذا لا تزورين منزلى كما أزورُ منزلَك ؟ . . .
عندنا حديقة رحبية تتسع للجرى والتوائب ، وفيها مخابىء نستطيع أن
نلعبَ فيها لُعبةَ الاستخفاء .

— إني ماهرة في هذه اللعبة . . . وستعرف صدقَ قولي .

— وعندنا نافورة يسبح فيها البط والإوز . . . وفي أقصى

الحديقة جُبٌّ .

— جُبٌّ؟!!

— جُبٌّ مُخِيفٌ ، كانوا يرمون فيه اللصوص والمجرمين .

— أحقًّا؟ . . . وددتُ أن أرى ماذا فيه .

— أنا لم أدخله في حياتي . . . إن العفاريت تتصايح فيه

طولَ الليل .

— ليتني أسمعُ أصواتَ هذه العفاريت!

— ألا تَفْزَعِينَ؟

وفي هذه اللحظة تعالى صوتٌ ينادي « فتحية » ، فقالت لي :
جَدَّتِي تَدْعُونِي .

وصعدتُ مهرولةً ، وما لبثتُ أن هبَّطتُ إلى تقول :

جَدَّتِي تَبْغِي أَنْ تَلْقَاكَ .

فرافقتهُ صاعداً إلى الطبقة العُلْيَا من المنزل ، وبينما نحن على السُّلَّمِ

حدثتني الفتاة أن جدتها مكفوفة البصر ، وإن كانت تضطلع بشئون

المنزل ، ولا يُعْيِيها أن تطوف في الحجرات كأنها مبصرة . . .

وأقبلنا على رَدَّهة صغيرة تحتوي على أثاث ساذج ، ولكنه بادي
النظافة ، حسنُ الترتيب . وواجهتني على المتكأ الفسيح امرأة بيضاء
الثوب ، على رأسها خمار ناصع البياض ، ويدها شُبْحة تُنْقَلُ حَبَاتِهَا
بين أناملها وهي تتمتم . وطلعتني منها وجه سَمَّحٍ عليه إشراق . وإذا
أحستُ وجودي نادتنني باسمي في تَلَطُّفٍ ، ومما دنوتُ منها مدت يدها
إلى رأسي ، وجعلت تتلورقُ بَصَوْتٍ عذب صافى النغم ، وختمت
رُقِيَّتَهَا تُوَالِي الدِّعَاءَ لِي ، وهي تقول :

أنتَ ناجحٌ بإذنِ الله . . . ستنالُ الشهادةَ على بركةِ الله !
ثم أجلستني بجوارها على المتكأ ، وأمرت « فتحية » بأن تُعِدَّ
لي كُوبًا من شراب الليمون ، ثم شرعتُ تجاذبني الحديثَ في شئون
المدرسة والمنزل ، واستطردتُ من ذلك إلى أن تسرُدَ عليَّ طرفًا من
أحداث طفولتها ، وكيف أخذت قسطها من حفظ القرآن . وكان حديثها
طليًا ممتعًا أنساني مرَّ الوقت ، وجعلني أشعر حين انتهت جلستي معها
بأنني أتركها على شوقٍ إلى المزيد .

وأخذتُ مركبتني قافلًا إلى منزلي ، ولم تزل صورة السيدة « هاجر »
— جدَّة « فتحية » — ماثلةً أمام عيني ، وقد أُلْقِيَ في رُوعِي أنني كنت
في حضرة وَرَليَّةٍ من صفوة الأولياء الصالحين الذين اختلفتُ إلى

أُصْرِحْتَهُمْ فِي صُحْبَةِ زَوْجِ أَخِي وَالْحَاضِنَةِ « مَسْرَاتٍ » .
وَفِي تِلْكَ الْأُمْسِيَّةِ وَجَدْتُنِي أَنْفَضْتُ نَفْسِي مُتَحَدِّثًا إِلَى زَوْجِ
أَخِي ، أَصِفُ زِيَارَتِي « لَفْتَحِيَّةِ » وَمَا لَقِيْتُهُ فِي جَلِيسَتِي إِلَى السَّيِّدَةِ
« هَاجِرِ » مِنْ حِفَاوَةٍ وَتَكْرِيمِ ، وَمَا أَكْدَتْهُ لِي مِنْ أَنِّي نَاجِحٌ
بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَأَنِّي سَبَّأْتُ الشَّهَادَةَ عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ . فَتَطَلَّقَ وَجْهُ زَوْجِ
أَخِي ، وَاسْتَزَادَتْنِي مِنْ وَصْفِ تِلْكَ السَّيِّدَةِ الْمُبَارَكَةِ ، وَمَا خَصَّتْنِي بِهِ مِنْ
طَرَائِفِ الْأَحَادِيثِ .

وَانصَرَمْتُ أَيَّامَ قَلَائِلٍ ، وَرَجَعْتُ أُصَيْبًا مِنَ الْمَدْرَسَةِ إِلَى مَنْزَلِي ،
فِرَاعَنِي أَنَّ أَجْدَ « فَتَحِيَّةِ » هِيَ وَجَدَّتْهَا السَّيِّدَةُ « هَاجِرِ » فِي حِجْرَةٍ
الِاسْتِقْبَالِ مَعَ زَوْجِ أَخِي . وَعَلِمْتُ أَنَّ الْحَاضِنَةَ « مَسْرَاتٍ » هِيَ الَّتِي
ذَهَبَتْ تَدْعُوهُمَا إِلَى هَذِهِ الزِّيَارَةِ بِإِشَارَةٍ مِنْ زَوْجِ أَخِي .

وَمَا أَسْرَعُ أَنْ أَخَذْتُ بِيَدِ « فَتَحِيَّةِ » مَاضِيًا بِهَا إِلَى الْحَدِيقَةِ ،
فَلَمَّا بَدَأْنَا نَجُوسَ خِلَالِمَا ، مَالَتْ عَلَيَّ « فَتَحِيَّةِ » تَقُولُ :

أُرِيدُ أَنْ أَرَى الْجَبَّ .

فصَحْبَتُهَا إِلَى مَكَانِهِ ، وَوَقَفْنَا مُتَجَاهَةً لِحِظَةٍ وَنَحْنُ فِي صَمْتٍ ، ثُمَّ
سَمِعْتُهَا تَقُولُ : أَحَقًّا أَنَّهُمْ كَانُوا يَقْدِفُونَ فِيهِ بِاللَّصُوصِ وَالْمُجْرِمِينَ ؟

— هَذَا حَقٌّ .

ووجدتُ الصَّبِيَّةَ تخطو نحو الجبِّ ، وأنا دَهْشَ مأخوذ ، ثم
ما لبثتُ أن تخطتُ عَتَبَتَهُ ، ووقفتُ ترمي بنظرها في أرجائه ، واستدارتُ
راجعة تقول :

مكان مظلم ، فيه بئر عميقة المهوى ، لا يبعث منه شيء على خوف !

٧

ترادفتُ أعوام ثلاثة ، وأنا في هذه المدرسة مع صديقيَّ « خيري »
و « الزغبى » نتلازم ولا نفرق . وكانت حظوظنا في الحياة متشابهة ،
فإذا كان رسوبٌ في الإمتحان رَسَبْنَا جميعاً ، وإذا كان نجاحٌ
فُرْنَا معاً .

ولم تكن أيامنا تخلو من مشاحنات تشوب ما بيننا من صفاء ، ولكن
كان يكفي أن يداعبَ أحدنا أخاه بكلمة ، أو يجاذبه بنكتة ، حتى يزول
الخصام ، ويشملنا الوئام .

أما « فتحية » فقد أصبحتُ صلتى بها أوثقَ ما تكون ، أزورها
وتزورنى ، وكذلك توثقتُ الصلةُ بين زوج أخى والسيدة « هاجر » ،

فهما تتزاوران وتأنسُ كلتاها بصاحبتهما كلَّ اثتناس .

وخلَّ بيتُ « فتحية » من « سرحان » ، فقد كبرَ ، وباعه « محي الدين افندي » لأحد السقَّائين في الحىِّ الذى يقيم فيه ، فكان السقَّاء يشدُّ الحمار إلى عرَّبةٍ تحملِ قَرَبَ الماء ، فيظلُّ مُطَوِّفًا بالحارات والأزقة طولَ النهار .

وقد يحدِّث أن أكونَ أنا و « فتحية » في فناء بيتها نلعب ، فنسمع نهيقَ الحمار ، فى بعضِ الطريق ، فنغشانا كآبةً ، ونُحسُّ كأنه يُهيب بنا أن نعيَّنه على أمره ، وأن نواسيه فى محنته ، فنخرج له نلتقاه فى شغفٍ وتحنُّان ، ولا نُعمُّ « فتحية » أن تُلقمه قطع السكر فى رِقَّةٍ وملاطفة .

والتحقتُ بمنزلنا خادمٌ نبيَّفتُ على الحسين ، تدعى « أم خضير » ، وكتلتُ إليها زوجُ أخى الإشرافَ على مخزنِ المئونة ، وكانت امرأة صخَّابة سليطة ، لا يكأُّ لها لسان ، ما إن تفرغُ من مشاكستها للطاهى حتى يندشب بينها وبين سائر الخدمِ عراك . وكثيراً ما فرَّغنى صياحها من نومى ، فأنهضُ فى سخط . وممراتٍ أقسمتُ أن أشكوها إلى زوج أخى ، ولأمر ما تهيبتُ أن أفعل .

وكانت زوجُ أخى تَحْمَدُها مشبوبَ نشاطها فى خدمة الدار ،

ودأبها في رعاية المرافق ، دون حَمَزٍ أو توجيه .
وعلى الرغم من سلاطتها وشغفها ، لم يكن الخدم يضيقون بها ذرعا ،
إذ كانت تؤنسهم في ساعات صفوها بألوان من المنمكة والمزاح .
ويوماً قَدِمَتْ علينا « فتحية » هي وجدتها ، لتدببت كلماتها
ضعيفين في البيت ، وطاب السهرُ لي مع « فتحية » بعد العشاء ، فلما
أثقل علينا النوم ، ولم نستطع له غلابة ، قمتُ أرافقها إلى مخدعها ،
في حجرة الضيافة ، وكانت مستقلةً في جناح بعيد . فجزنا في
مسيرنا بحجرة « أم خضير » ونحن نخطو على هيئة ورفق ، فتناهت إلى
سمعنا أصوات غير مأوفة ، فوقفنا بباب الحجرة نصت ، وما لبثت أن
سددت نظري في فُرْجَةِ المفتاح ، فرأيتُ عجبا : « أم خضير » ترقص
في تبدل ، ومن حولها جمع الخاديات يطبلن ويصفقن ويعنين ، وزحمتني
« فتحية » تريد التفرج ، وأخذتُ مكاني في تشوف وتعجل . ولكن
سرعان ما تخلت عن الباب ، وهي تبادلي النظرات في دهشة وتخجل .
وتابعنا سيرنا صامتتين .

كانت « أم خضير » زوجا لرجلي يُسمى « بابا درويش » ، وقد
أطلق عليه الناس هذا اللقب ، لأنه كان يضع على رأسه طرطورا متطاولا ،
على نحو ما يلبس « الدراويش » . وكنتُ أراه يتردد على منزلنا زري الملبس ،

يلفّ على طُرُوبِهِ عمامة خضراء ، وفي كل مرة يطرق الدار يخرجُ إليه « بشير أغا » ليناوله مبلغاً من المال ، تمنحه زوجُ أخى إياه . وأذكر أنى لُحْتَه غيرَ مرة يقصد إلى باب الحَرَمِ ، فى مُسارِقَة وتلصّص ، فتلقاه زوجُه « أمّ خُضَيْر » وتُلقى إليه صُرَّة لا أدرى ماذا تحوى ، وتناقشه فى إمرة جارحة وتسلّط مُذِلّ ، فيتضاحك الرجل فى عبث وتهريج ، وينصرف حاملاً الصُرَّة ، غيرَ لآوٍ على شىء ، فيتبعه من يصادفه من الخدم ، وهم يماجنونه ويناوشونه فى غير احتشام .

وحلَّ يومَ مرضتُ فيه الحاضنة « مَسَرَّات » ، إذ تورّمتُ قدماها ، فلم تعدّ تقوى على النهوض . ولزمتُ حجرتها لا تبرح المخذع ، فاضطلعتُ « أم خضير » بما كانت تضطلع به الحاضنة من شأنى . والحقّ أنّها كانت تؤدّى عملها على خير ما يجب ، ولا سيما إذا اقتضى الحال دقة فى الرعاية والتعهد ، فإن انحرفتُ صحىّ ألفتُ « أم خضير » أنشط ما تكون فى خدمتى وتمريضى . ولكنها كثيراً ما شاركتنى غيرَ مدعوّة فى طعامى ، وطالما قرّبتُ لى صحفّة الحساء خالية من الدجاجة ، مدّعية أن القطّ النهمها ، وأنها لن تُنجيه من العقاب !

٨

وكانت « تهناني » تزورنا مع جدتها « إجلال هانم » في الحين بعد الحين ، والتقت في بعض زوراتها « بفتحية » ، فتمّ بينهما التعارف ، ولكن « تهناني » لم تكن تهبط من عليائها لتلاعب « فتحية » أو تلبسَ معها في الحديث .

واتفق لقاؤهما في منزلنا ذات يوم ، فأنكرت « فتحية » من « تهناني » تحيتها الجافية المتعالية ، ولم تلبث أن استخفت ، فلم يستبن لها في المنزل ظل ، وما توانيت في البحث عنها ، بيد أني لم أجدّها إلا حين تحاقنا جميعاً حول مائدة الغداء .

وفطنت إلى أن « تهناني » تُخالسُ « فتحية » نظرات سُخرية واستهزاء ، ثم تميل على جدتها تُسرّ إليها بعض الكلمات ، وشعرت بأن « فتحية » تغالب التبرّم والضيّق ، على تظاهرها بالسكينة ، كأنها غيرُ مبالية .

وبعد أن استوفينا قسطنا من الطعام ، ترك الجمعُ مقاعد المائدة ، وخلا المكان لنا نحن الثلاثة ، أنا و « فتحية » و « تهناني » .
وخصّنتني « تهناني » بالحديث ، قائلةً في صوتٍ غيرِ جهير :

فتاة من عامة الناس ، لا تليقُ بما لنا من مقام !
فأحسستُ بأن أوصالى قد جمدتُ ، وأنى إن أطلقتُ لسانى
أسمعتُ « تهانى » ما تكره ، ورأيتُ « فتحية » تنهضُ صامته تريد
الخروج ، وسمعتُ « تهانى » تتابعُ قولها فى صوت أجهرَ من ذى قبل :
انظُرْ إلى جوربِها ... جورب ولا كالجوارب ... آخرُ بدعة!
وانبعثتُ ضاحكةً فى توقُّح ، ولا أدرى كيف احتبسَ الكلامُ
فى فى ، فلم أنبسُ ، على حين أنى كنتُ أغلى كالمُرْجَلِ الفوَّار .

ورمقنا « فتحية » بنظرة حادة ، وانصرفتُ فى خطأٍ سراع .
وعلمتُ فيما بعدُ أنها غادرتُ البيتَ مع جدَّتِها السيدة « هاجر » بعد
الغداء بقليل . فلبثتُ وقتى مع « تهانى » ضائقَ الصدر ، كئيبَ
النفس ، على الرِّغْمِ مما حاولته هى من إيناسى وابتعاثِ نشْطَتِي للهو
والمِراح .

وما إن آذنتُ الشمسُ بالغيوب ، حتى انصرفتُ من الدار
« إجلال هانم » ومعها « تهانى » ، فشعرتُ بعد انصرافها كأنما انزاح
عن كاهلى عبءٌ ثقيل . ولكن طيفَ « فتحية » ظل يلمح أمام عيني ،
وكأنها تعتِبُ علىَّ فيما كان من سكوتى ، وتساألنى : كيف وقفتُ
مكتوفَ اليدين إزاء الإهانةِ التى ألحقها « تهانى » بها ؟

وحان موعدُ النوم ، فرأيت « أم خضير » تطرُقُ حجرةَ مخدعي
لِتَسْوِيَ الفراش ، وتملاً قلةَ المساء ، وساورتني فكرة لم أملك لها
دفعاً ، فاقتربتُ من المرأة ، وهمستُ أقول لها في ملاينة ورجاء :
أترضين أن تؤدّي لي خدمة هينة ؟

فنظرت إليّ ، وهي تبسّم ، ثم قالت :
على العين والرأس . اطلبُ تجدني خادمتك .
فأحجمتُ عن الكلام لحظات ، وأنا مطأطي أفرك إحدى يدي
بالأخرى ، ثم اندفعتُ أقول : أريد أن تشتري لي شيئاً . أريد أن
تختاريه من أحسنِ نوع . كم قرشاً تطلبين ثمناً له ؟
فرنتُ ضحكاً كئيباً ، وهي تقولُ معايشةً :

كيف لي أن أطلبَ منك ثمنَ شيء لا أعرفُ ما هو ؟
— زوج من الجوارب ، من أحسنِ صنف .

— أفى حاجة أنتَ إلى زوج من الجوارب ، وصيوانك مملوء
بالجديد منها والقديم ؟

— لا أريدهُ لي . . . أريده . . .
وأرتجِ علىّ ، فلم أَلْفِظُ من قول . وشعرتُ بالدم يضطرم في
وجهي ، وسمعتُ المرأة تقول ، وقد غمزتُ بحاجبها :
أتمم . . . أتريدهُ جورباً نسويّاً ؟

فغمغمتُ قائلاً : نعم .

فتدانتُ المرأةُ مني ، وهي تقول ، وقد برقتُ عينها :

لأيةِ الفتاتينِ تريدهُ ؟ . . . لهذه أم لتلك ؟

فأجبتُها محتبسَ الصوتِ : أريدهُ « لفتحية » . . .

— حسناً ، حسناً . . . سأحضِرُ لك الجوربَ من أحسنِ صنف .

وسرعانَ ما تدانتُ مني ، ومدتْ يدها إلى خصرِي تدغدغني ، وهي

تقول : طِبُّ نَفْسًا وَاتَّعَشْ . . . وَخَلَّ عَنْكَ الْخَجَلُ وَالْإِ كْتِنَابُ .

وفي غدِي ، وأنا خارجٌ من المدرسة أصيلاً ، أعتلي المَرَ كَبَةً ،

ناولني السائقُ « مدبولي » كَفِيفَةً صغيرةً ، وأخبرني بأن « أم خضير »

أوصتته بأن يُسَامِهَا إلى ، فأحسستُ بقلبي دائبَ الخنقان ، وجعلتُ

أقلبُ الكَفِيفَةَ بين يدي ، وأنا مهتاج ، ولطالما هممتُ بأن أفتحها لأتبيّن

ما تحويه ، ولكنني ملكتُ نفسي ، وآثرتُ أن أبقِيَ الكَفِيفَةَ على

حالمها ، وقالتُ للسائقُ « مدبولي » :

خُذْ طَرِيقَكَ إِلَى مَنْزِلِ « محي الدين افندي » . . .

وما كِدْنَا نصل ، حتى قفزتُ من المركبة عاجلاً إلى المنزل ،

فصادفتُ « فتحية » في الفناء ، بين يديها دِيبَاجَةٌ تُعْنَى بتطريزها ،

فلما أحسَّتْ مُقَدِّمِي ، أَلْقَتْ عَلَى نَظْرَةٍ عَابِرَةٍ ، وانكفأت على ديباجتها
كأن لم ترَ شيئاً . وفي هذه اللحظة وجدتني كأنما صُبَّ على رأسي دَلْوُ
ماء بارد ، فتناقلتُ خُطَايَ ، وَعَلَنَ لِي أَنْ أَتْرِكَ الْمَنْزَلَ رَاجِعاً ، ولكني
لم أملكُ إِلَّا أَنْ أَتَقَدَّمَ عَلَى هَيْبَةٍ ، وَأَنْ آخِذَ مَكَانِي بِجَوَارِهَا ، عَلَى
دَكَّةِ الْخَشْبِ . وَشَرَعْتُ أَنْ أَمْلِي تَعَبْتُ بِاللَّفِيفَةِ مَعِيَ وَأَنَا صَامِتٌ ،
وَشَاهَدْتُ الْجُورِبَ يَبْرُؤُ مِنْ جَوَانِبِ اللَّفِيفَةِ هَفْهَافاً رَقِيقَ الْحَاشِيَةِ ،
فَاهْتَزَّ لِمَرِّ آهٍ قَلْبِي ، وَالتفتُ عَجْلَانِ إِلَى « فَتْحِيَّةِ » ، وَمَدَدْتُ لَهَا يَدِي
بِالْجُورِبِ فِي أَهْتَامٍ وَتَحَمُّسٍ ، وَقُلْتُ :

لقد أحضرتُ لكِ شيئاً يا « فَتْحِيَّةِ » . . .

فعدلتُ ببصرِها نحوِي وهي تقول : لي أنا ؟

وما إن رأتُ الجُورِبَ فِي يَدِي ، حَتَّى أَزُورَّتْ عَنِي ، وَبَغْتَةً غَطَّتْ

وَجْهَهَا بِكَفِّهَا ، وَانْدَفَعَتْ تَنْشِجَ وَتَقُولُ مُحْتَدَّةً : لستُ فِي حَاجَةٍ إِلَى

جُورِبِ . . . لستُ فِي حَاجَةٍ إِلَى شَيْءٍ . . . دَعْنِي وَشَأْنِي !

وَتَحَرَّجَ مَوْقِفِي ، وَاشْتَدَّ ارْتِبَاكِي ، فَأَعَدْتُ الْجُورِبَ إِلَى كَفِيفَتِهِ ،

وَانْهَمَكْتُ أَعْقِدُ اللَّفِيفَةَ كَمَا كَانَتْ ، وَهَمَمْتُ بِالْإِنْصِرَافِ ، وَلَكِنِّي

أَلْفَيْتُ « فَتْحِيَّةِ » تَهَادِي فِي نَشِيجِهَا ، وَيَتَعَالَى نَحِيْبُهَا ، وَخَشِيْتُ أَنْ

يَبْلُغَ الصَّوْتُ أَسْمَاعَ جَدَّتِهَا ، أَوْ يَفَاجِئُنَا أَبُوهَا فَيَرَاهَا عَلَى تِلْكَ الْحَالِ ،

وَحَزَبَنِي أَمْرِي ، فَزَوَّيْتُ مَا بَيْنَ عَيْنَيْ ، تَسْتَفْرِقُنِي الْخَيْرَةَ ، وَحَتُّ
السَّائِقِ « مَدْبُولِي » يَلُوحُ وَيَخْتَفِي ، وَهُوَ يَرْقُبُنَا رِقْبَةً التَّطَلَّعَ ، ثُمَّ
رَأَيْتُهُ مَقْبِلًا عَلَيْنَا ، وَهُوَ يَقُولُ :

مَاذَا جَرَى ؟ مَاذَا لَا تَتْلَاعِبَانِ ؟

ثُمَّ قَصَدَا إِلَى « فَتْحِيَّةِ » فَرَبَّتْ كَتِفَيْهَا ، وَقَالَ لَهَا :

أَهَذَا وَقْتُ غَضَبٍ وَبَكَاءٍ ؟ تَعَالَى مَعِيَ . . .

وَذَهَبَ بِهَا إِلَى صُنْبُورِ الْمَاءِ ، فِي أَقْصَى الْفِنَاءِ ، فَعَسَلَهَا وَجْهَهَا ،

وَجَعَلَ يُضَاحِكُهَا وَيُفَاكِكُهَا ، حَتَّى سُرِّيَ عَنْهَا ، وَعَادَ بِهَا إِلَى جِوَارِي ،

وَقَالَ لِي فِي لَهْجَةِ الْأَمْرِ : قُمْ فَاقْبَلِي رَأْسَهَا .

وَأَطَعْتُ دُونَ جِدَالٍ ، فَالْتَفَتَ السَّائِقُ « مَدْبُولِي » إِلَى

« فَتْحِيَّةِ » قَائِلًا : لَا يَصِحُّ أَنْ تَرْفُضِي هَدِيَّةً يَقْدِمُهَا إِلَيْكَ أَخُوكِ .

وَأَخَذَ اللَّفِيفَةَ مِنِّي فَقَدَّمَهَا إِلَيْهَا ، فَتَقَبَّلَتْهَا مِنْهُ ، وَإِذَا هُوَ يَقُولُ لَهَا :

جَاءَ دَوْرُكَ . . . قَوْمِي الْآنَ قَبَّلِي رَأْسَ أَخِيكَ .

فَلَمْ تَتَمَنَّعْ ، وَلَبِثَ مَعَنَا السَّائِقُ « مَدْبُولِي » وَقْتًا يَثِيرُ تَضَاحِكُنَا

بِمَعَابِئِهِ وَنِكَاتِهِ ، وَيَدْفَعُنَا إِلَى الْإِشْتِرَاكِ فِي اللَّعِبِ مَعًا ، حَتَّى صَفَا

مَا بَيْنِي وَبَيْنَ « فَتْحِيَّةِ » ، وَعَادَتْ إِلَى مَأْلُوفِ شَأْنِهَا مِنْ مَرَحٍ

وَإِينَاسٍ .

وكنتُ فيما بعدُ كلما لقيتُ « فتحيةَ » تطلعتُ في شغفٍ إلى ساقِها ، لأنظرَ ما تكتسيان من جوربٍ ، فألاحظُ أنها اقتنتُ جواربَ كثيرةً ، وأنها كانت أشدَّ ما تكونُ عنايةً بتخيُّرِ ألوانِها وأنواعِها ، ولكني لم أرها يوماً تلبسُ الجوربَ الذي أهديتهُ إليها ، ولم يَدُرْ بيننا يوماً ما حديثٌ في شأنِ ذلك الجوربِ المنبوذِ !

٩

هأنذا بعد أربعةِ أعوامٍ أبلغُ السادسةَ عشرةَ ، ومع ذلك فما أزال في مدرستي الابتدائية المعهودة ، مؤتسماً فيها بصحبةِ قرينيِّ « الزغبى » و « خيرى » ، نؤلِّفُ معاً ثلوثَ التلاميذ الكبار أصحابِ النفوذِ والسلطانِ ، يتهيَّبنا سائرُ أبناءِ المدرسة ، ويحسبُونَ لنا ألفَ حسابٍ ! أما « تهنانى » فقد سافرتُ بها جدَّتُها « إجلال هانم » إلى « استانبول » منذ أعوامٍ ثلاثة ، ولم أعلمُ من أمرِهما إلا أن « تهنانى » أُلحِقَتْ هنالك بالقسمِ الداخلىِّ في إحدى المدارس الفرانسيَّةِ .

ورَوَّعَنِي يوماً على حينِ فجأةٍ نبأً فاجعاً ، ذلك هو وفاةُ

« محي الدين افندي » فَعَشِيَتْ المَدْرَسَةَ يَوْمَئِذٍ غَاشِيَةً مِنَ الأَسَى ،
وراح التلاميذ يتناقلون الخديثَ في هذه الفاجعة ناكِسي الرؤوس ،
مكتئبي النفوس .

تلقت السيدة « هاجر » هذه الصدمة بصبر واحتمال ، ولكن
الحزن كان يسرى في طواياها ، فينال منها منال الشؤس من خشبٍ
غليظ . على أن ذلك الحادث الأليم كشف عن معدنها الأصيل
وجوهرها الكريم ، فقد نشطت مواجهة مطالب العيش في إباء وعزّة
نفس . وكان أول ما لجأت إليه من تدبير أنها انتقلت إلى شقة صغيرة
في منزل بحى « السيدة زينب » ومارست نوعاً ملائماً من التجارة
تستطيع الإشتغال به ، ذلك هو أن تنتقل في بيوت الموسرين حاملةً
طرائف من الأمتعة والثياب وأدوات الزينة ، فتبيعها لربّات البيوت
نقداً أو سيئة . وكانت « فتحية » ساعداًها الأيمن في هذا الشأن ،
إلى جانب تكسبها بالحياكة والتطريز .

وكثيراً ما كانت زوج أختي تُضيفُهما أياماً ، وتواليهما بألوان من
المبرّات ، فأقضى مع « فتحية » أوقاناً مؤنسة . وكنتُ أعرف من
من نفسي أنى كلما لاقيتها شعرتُ بأنى أستطيب الحياة ، وأستجيبُ
لواجب المدرسة ، وأجدنى كأنما أوتيتُ القدرةَ على مغالبة المصاعب

واجتياز العقبات ، فلا ألبث أن أفكر في قابلِ أيامي ، فيزدحم رأسي
بشئى المشروعات والخطط .

وكنت أتحدث إلى « فتحية » وأنا شاردُ النظر ، هائم الفكر ،

أقول :

حيناً تكبرياً « فتحية » سنحقق معاً عظام الآمال ، وسنبهض
بحسام الأعمال .

فتنظر إلى ، والدهشة ملء عينيها ، ثم لا تغم أن تقول في صوت
لين التبرات : إن شاء الله . . . إن شاء الله .

وكان يحلولى ، وأنا فى ساعة استذكارى للدرس ، أن أستبقيها
فى حجرتى ، فتعكف على ديباجتها تطرّز ، وأنا مكبٌ على كتي
وكراساتى .

على أن هذا لم يكن يمنع أن أرفع رأسى فى الفينة بعد الفينة ،
أختلس النظر إليها ، فأراها فى ضوء المصباح قد تألق محياها فاتن
القسمات ، فأظلمت تلك الفتنة ، يحدونى باعث كمين .

وقد أرى « فتحية » ترفع هامتها عن الديباجة ، ناظرة إلى ،
فتباغتني وأنا أرنو إليها ، فتبادل الابتسام ، ولا نلبث أن نعرّونا
خجلة واضطراب .

وليلةً دخلتُ علينا « أم خضير » ونحن معاً في حجرتي ، على هذه الحال التي أسلفتُ وصفها ، فجعلتُ تنقلُ نظرَها بين « فتحية » و بيني ، ثم همهمتُ :

أما كفاً كما شغلاً ؟ . . . استريحاً قليلاً . . . رفهاً عن نفسيك
وقتهاً . . . المثل يقول : ساعة لقلبك !

ثم تدانتُ مني ، وانحنتُ على أذني كأنما تريد أن تسرَّ إليَّ الحديث ، ولكنها على الرغم من ذلك رفعتُ صوتها تقول :

لو كنتُ مكانك لما جلستُ هكذا أنكفي على مكثي كشيخ
هَرَمٍ ، بل كنتُ أجلس بجانبها أقطفُ لي من خدِّها قبلةً مُنعشةً !
فساورتني ربكةً ، واضطرم وجهي ، وانعقد لساني ، فأما
« فتحية » فقد نهضتُ من فورها ، وهي غضبي تقول :

ما هذا الكلام الفارغ يا « أم خضير » ؟ . . .

وما عتمتُ أن غادرتُ الحجرة ، قاقمة الخطأ .

وما إن مضتُ عنى « أم خضير » وخلتُ لي أركان الحجرة ،

حتى رأيتني أعمدُ رأسي بيدي ، وأهيمُ في حلمٍ بهيجٍ ترفُّ فيه تلك
القبلة المشودة التي أطبعها على خدِّ « فتحية » . . .

وكنت أشعرُ بوحشة حين تنقضي ضيافةُ صديقتي ، ويغيبُ عن
عيني مرَّ آها ، فأجدني مأولاً فاترَ الهمة غيرَ مقبلٍ على الدرس
والإستذكار . . .

١٠

ولم تكن عيني تقع على أخي « حمادة » إلا لِمَأمًا ، فإذا لَقِيتُهُ
تَجَهَّم لي ، وبدا كالحالِ الوجه ، يُحَيِّني بتحيته المعهودة ، قائلاً :
ولد بليد فاسد !

ويستأنفُ خطوَه نائياً عني بِجَنَبِه ، وقد أ كسبَ قِسائِه أماراتِ
النَّافِثِ وَالإِسْتِكْبَارِ . . .

ولم يكن أخي يزيدُ شيئاً على هذه الجملة التي أَلْفَتْها منه ، مختصراً
فيها نصائحه وتوجيهاته وألوانَ رعايته .

ولقد كنتُ أَعْتُرُّ على الرسائلِ المدرسيَّةِ الخاصةِ بي مغلقةً لم يُفَضَّ
غِلافها ، مبعثرةً على المناضدِ أو في إحدَى زوايا الحِجْرِ .

ولاحظتُ أن أخي تستبين فيه علامُ الشيخوخة ، مع أنه لم يكن

وقتئذ قد جاوز الخامسة والأربعين ، فهو يبدو شاحب الوجه ، كثير الغضون ، متقوس القامة ، لا تفارق الرعشة يده .

وكلما شهدته على تلك الحال ، يغالب شيخوخته الباكورة ، يدركني عليه بعضُ إشفاق ، على الرغم من إزرائه بي ، وتقطع الأسباب بينه وبينى .

١١

وحلّ بنا « شهرُ رمضان » ذلك الشهر المبارك الذي يُضفي على البيت رَوْقاً وبهاءً . فما إن يميل ميزان النهار حتى تنبسط الموائد شتى للرجال والنساء ، فإذا تجاوزت ما ذنُ المساجد بأذان المغرب ، استقبلت تلك الموائد ضيفانها من خاصة الزوار ، أو من القرّاء والأتباع ، وقدّمت قِصاع التريّد مكاملةً بقطع اللحم لمن يحتشدُ بالباب من العفّاة عابري السبيل .

وفي طوايا الليل تتلألُ الأنوارُ في جنبات الدار طوآل الشهر ، كأنما هي ليالي عُرْسٍ موصول . ولا تزال الدار في حركة دائبة حتى

ساعة السحور ، والقراء يتبارون في تلاوة القرآن ، على اختلاف الألحان ، وينشدون الموشحات النبوية رائقة الأنغام . كما كانت صلاة الجماعة تقام في جلال وخشوع ، فتعمرُ الدارِ برُوحٍ لطيفٍ من التدبُّرِ والإيمان لا تَزَمَّتَ فيه ولا استيحاَش ، ولكن صفاءً يتيح للنفوس النقلبَ في أعطافِ المَرَحِ والإيناس .

وكان بَطْلُ المَوْسِمِ في ليالي « شهر رمضان » هو « بابا درويش » زَوْج « أمِّ حُضَيْرِ » . . . فلم يكن يبرُحُ الدارَ خلالَ الشهرِ كُلِّه ، يقطع أغلبَ نهاره نائمًا في حجرة القراء ، فإذا ما تَأَهَّبَتِ الدار لتقديم موائد الإفطار تعالَى صوتُه مجلجلا ، وتراءى شخصه متنقلا ، فبينما هو بالباب يشاحنُ العُفَّةَ من عابري السبيل في تطاول وتأمُر ، إذا هو بين الخاصة من الضيوف يقبَلُ يدَ هذا ويتملِّقُ ذاك ، ويحاول أن يُشعرَ مَنْ هنا وَمَنْ هناك بما يؤدِّي لهم على الموائد من خَدَمَات . . .

وبعد صلاة العشاء والتراويح ، يُتَّجَمُ نفسه حاكماً مهيمناً يومَ الجمعِ أنه يَضَعُ نظامَ التلاوةِ بين القراء ، ويعيِّن مراتبَ الوافدين للسمع ، لا يَصُدُّه عن ذلك ما يلقاه من سُخْرِيَّةٍ واستهزاء .

وكان مِنْ تَلَطُّفِ زوجِ أخى أن استضافتُ السيدة « هاجر » و « فتحية » لتقضيَا عندنا هذا الشهرَ الكريمَ ، فاستجابتا للدعوة ،

وأَمْضَيْتُ مع « فتحية » فترةً من الزمن تَمَلَّيتُ فيها أُطيبَ ما في الحياة .

كنا نطعم معاً في فَطُورٍ أو سَجُورٍ ، ولا ألبثُ حين عَوَدَتِي من المدرسة أن أعْجَلَ إليها وهي تنتظرني بجوار النافورة في الحديقة ، فنجلس معاً نُلقَى إلى الإِوزِّ والبَط ما يَتيسَّر من الطعام . وكان يطيب لنا المكوثُ جنباً إلى جنب ينعقدُ بيننا صمت ، وفي الفينة بعد الفينة تتهدى سوانح النظرات والبسمات . ومتى ارتفع صوتُ المؤذن بالتكبير ، داعياً إلى الإفطار ، صَحَوْنَا من غفوة أحلامنا ، وكلُّ منا يقرأ في عين صاحبه أسفاً على انقطاع غفوةٍ مُحبَّبةٍ تلوحُ فيها مباحجُ الأحلام .

وكنا نقضى السَّهْرَةَ معاً في البهو الكبير ، نستمع مع الوافدات على الدار من الضيوف إلى قارئةٍ رخيمةٍ الصوت تتلو آيَ الذِكر الحكيم ، ونخرج أحياناً إلى الفناء الداخليّ تنسليّ بما تخوضُ فيه الخادِمات من مُلاعِباتٍ ومفاكياتٍ وأَسْمارٍ .

وليلةً خلوتُ بنفسى في حجرتي تؤنسنى لطائفُ أحلام ، فأنبهني على حين فجأةٍ شخصٌ « أمّ خُضيرُ » ماثلاً في الحجرة ، وناأني ذُعْر ، وسمعتها تقولُ في صوتٍ عابثٍ :

مَعذِرَةٌ . . . لقد أزعجتك من أحلامك !

فأجبتها ، وأنا أحاول ضَبْطَ النفس : أَيْةَ أَحْلَامٍ تَعْنِينِ ؟
فتدانتُ مني ، وابتسامتها تتلعب على شفثيها ، وقالت كأنها
تهمس :

قسماً إني لأعلم ماذا يشغلُ بالكَ !
وازدادتُ من دُنُوها ، وهي توأصلُ حديثها :
كلَّ الشَّبَّانِ في مثلِ سِنِّكَ يَعَشَّقُونَ !
فصرفتُ عنها بصرى ، وأنا مضطربٌ ، فتابعتُ قولها :
ولكني لم أرَ شاباً أجهلَ منك بشئونِ الغرامِ والهيامِ !
وجعلتُ المرأةَ تتلفتُ حوالَيْها ، ثم تهوى على أذني بغمها قائلةً
في خفوت : إذا جاءتكِ فأغلقِ البابَ عليكما دونَ أن تُشعرها بأنك
تفعل ... لا تُضِعِ الفرصةَ يا أبته !

وأحسستُ بأن « أم خضير » تكاد تلامسُ بخدّها صفحةَ وجهي ،
وهبتُ على أنفاسها الثقالة ، فتناوتتُ عنها ، وأنا أشعرُ بحشية وتقرز .
أما هي فاستمرت تقول : البنتُ مثلكِ بلهاء ، لا تحسنُ الملاءمةَ !
ثم وقفتُ متأوِّدةً الخضر ، غمَّازةً بالحاجب ، تلعبُ أصابعها
تمثيلاً للموقف ، وهي تقول : حينما كنتُ في سنِّها كانَ عليَّ الناسُ
يتزاحمونَ عليَّ ، ويتغزلونَ فيَّ ، ويتنافسونَ في استهداءِ قُبَلَةِ مني !

ورأيتها تُورِليني ظَهْرَها ، ماضيةً تتخَطَّر . وما بلغتُ البابَ استدارتُ
تواجهني بقولها : لا تنسَ نصيحتي . . . كُنْ شجاعاً !
واستخَفِي شَبِحُها عن عيني ، فَهَرِعتُ إلى البابِ أَغْلِقُه علىَّ بالانفتاح
وقضيتُ ليلاتي في بحرِ جُحِيٍّ من المشاعرِ والتصورات . . .

١٢

وسمعتُ يوماً أن « إجلال هانم » و « تهباني » رجعتا من
« استانبول » وأنهما معزمتان زيارتنا في ضَحْوَةِ غَد ، فكانتُ مباحثة
دَهَشَ لها أهلُ الدار ، ولاحظتُ على « فتحية » وجوماً وهيجَةً نفس ،
وفاجأتها وهي تنتحى بجدتها ناحية ، وتحثها على مغادرة الدار ، فاعترائني
ضيق ، ونظرتُ إلى « فتحية » في حيرة وإشفاق ، ولم أدخِرْ وَسْعاً بعد
ذلك في أن أسرِّيَ عنها ، وأن أتلفَّ بها كل التلطف .

وفي أصيلِ غدى ، حين عدتُ من المدرسة إلى المنزل ، ألفتُ
السيدة « هاجر » و « فتحية » جالستين في ركنٍ من أركان البهو ،
مع القارئة . وكانت « فتحية » تَلزِمُ الصمت ، وفكرها في سُرود ،

ولما أحستُ بي مُقبِلاً، على شَفَتَيَّ ابتسَامُ ترحيبٍ ، أرْعَتْنِي نَظَرَهَا فِي شَيْءٍ مِنَ التَّكْلُفِ ، فَقَصَدْتُ إِلَيْهَا ، وَأَتَّخَذْتُ مَجْلِسِي بِجَانِبِهَا أَنْفُضُ لَهَا جَعْبَةَ الْأَخْبَارِ .

وَبَيْنَمَا نَحْنُ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ ، تَنَاهَتْ إِلَيْنَا جَلْبَةً مَرَكَبَةٌ بِالْبَابِ الْكَبِيرِ ، فَشَمِلْنَا إِصْغَاءً ، وَتَبَادَلْنَا نَظْرَةً ذَاتَ مَعْنَى ، وَرَأَيْنَا بَعْضَ الْخَادِمَاتِ يَهْرَوْنَ إِلَى حِجْرَةِ زَوْجِ أَخِي ...

وَبَعْدَ لِحْظَاتٍ تَتَابَعَتْ الْحَرَكَةَ ، وَسَمِعْتُ أَصْوَاتًا تَبَيَّنَتْ لِمَنْ هِيَ عَلَى الْفُورِ ، ثُمَّ رَنَّتْ ضِحْكَةً مَدِيدَةً فِيهَا نَعُومَةٌ وَطِرَاوَةٌ ، فَالْتَفَتُّ إِلَى « فَتْحِيَّةِ » فَإِذَا وَجْهٌ مُتَمَتِّعٌ ، وَمَا هِيَ إِلَّا أَنْ شَهِدْنَا « إِجْلَالَ هَانِمِ » تَعْتَمِدُ عَلَى سَاعِدِ « بَشِيرِ أَعْمَا » وَتَسِيرُ سِيرَهَا الْوَاهِنِ الْوَيْدِ ، وَعَنْ يَسَارِهَا « تَهَانِي » تَخْطُو خَطَوَاتِ الظَّبِيِّ الْمَرِحِ ، وَتَنْثُرُ حَوْلَهَا الْبَسْمَاتِ خَلَابَةً سَاحِرَةً ، وَخَلْفِيهِمْ جَمْعٌ مِنَ الْحَاشِيَةِ وَالْأَتْبَاعِ .

وَأَسْرَعْتُ زَوْجَ أَخِي تَسْتَقْبِلُ الضَّيْفِينَ فِي وَسْطِ الْبَهْوِ ، وَتَشْتَبِكُ مَعَهُمَا فِي مُلَاثِمَةٍ وَعِنَاقٍ . وَوَجَدْتَنِي أُنْقَدِّمُ نَحْوَهُمَا ، وَاشْتَيْتُ عَلَى يَدِ « إِجْلَالَ هَانِمِ » أَقْبَبْتُهَا ، فَحَيَّيْتَنِي وَلاطَفْتُ رَأْسِي ، وَكَانَتْ يَدُهَا كَمَا عَهْدْتُهَا تِلْكَ الْيَدِ النَّقِيَّةِ الْأَدِيمِ ، الرَّقِيقَةِ الْبَشْرَةِ ، الَّتِي يَنْفَحُ مِنْهَا عَطْرُهَا الْمَأْلُوفِ . وَلَمَّا رَفَعْتُ رَأْسِي أَمَامَ « إِجْلَالَ هَانِمِ » اسْتَبَانَ لِي عَلَى الْفُورِ

ما صنعت الشيخوخة بذلك الوجه الوديع ، ولم أكن أحسب أن أربعة أعوام تستطيع أن يكون لها ذلك الأثر الوخيم . ورأيت شفتيها ترتعشان ، وهي تبسم لي ، في ملاطفة وتحنن . فنالني عليها تحسر ، ووددت أن تتاح لي فرصة أعاود فيها تقبيل تلك اليد الكريمة .

ثم عدتُ ببصرى إلى « تهانى » ، فخيّل إلى أن جسدها كله يتسم في تألق ، وراعى أنها أصبحت فارعة القامة ، يانعة الأوصال . فصاغتُها صامتاً ، خافضَ البصر .

ومضينا جميعاً إلى حجرة الزوّار ، وحانت منى التفاتة ، فلمحتُ « فتحية » ماثلةً حيث تركتها بجانب جدتها ، لا يعبأُ بها أحد ، فهمتُ أن أرجع إليها ، ولكنى ألفتنى في الركب منقاداً لا قبل لي بالنكوص .

وكانت « تهانى » آخذةً بيدي ، وهي تنظر ذات اليمين وذات الشمال ، وتتحدث إلىّ في شأن الدار ، تعجب لها كيف هي على حالها لم يتبدل من أمرها شيء ، كأن آخرَ عهدٍ لها بها أمس .

واحتوتنا حجرة الزوّار ، وتناقل الجمعُ أحاديث متعاقبة متلاحقة ، كانت « تهانى » ضجيرةً بها ، تُبدي في جلستها علائم التامل والقلق .

وبعد قليل رأيتها تُمسِكُ يدي ، وهي تقول :

بنا إلى حديقة الدار .

ورجعنا نجتاز البهو ، فمررنا بالفارثة في مجلسها صامتة ترتقب

أذان المغرب ، فأما « فنجية » وجدتها السيدة « هاجر » فلم أجد لهما من أثر .

ونزلنا إلى الحديقة نجوس خلالها ، وكانت « تهاني » تتباطأ

في مشيتها ، يتموج على جسدها ثوبها الحريري الهفيف ، ذو اللون

الوردي . ووجدتني أخالسيها النظر متملياً وجهها الوضيء ، ترؤعني

فيه عينان مكحولتان ، ينحسر دونهما البصر .

وأخذنا بأطراف الأحاديث ، وراحت « تهاني » تقصّ عليّ من

أنباء حياتها في « استانبول » ، وتنقصني أنباء حياتي الخاصة في المنزل

والمدرسة .

وبغنة ألت عليّ نظرة فاحصة ، وقد ارتسمت عليّ فيها ابتسامة

واضحة ، وقالت لي : لقد أصبحت رجلاً يا « سامي » . . . لقد

نبتت شاربك !

فابتسمت لها وأنا أقول : لم يعد لائقاً بنا الآن يا « تهاني »

أن نلعب لعبة الاستخفاء ، أو نتسلق عرائش العنب !

وتضاحكنا طويلاً ، ونحن نتذاكرُ تلكَ العهدَ الخالية . وما
زلنا في سيرنا ، حتى بلغنا الظلةَ القائمةَ بجوار النافورة ، فتبينتُ من
« تهناني » رغبةً في الجلوس ، فاستجبتُ لرغبتها ، وأسرعتُ أُخْرِجُ
مندبلي فأبسطهُ لها على المقعد الخشبيّ ، فأشرق وجهها ارتياحاً ،
وجلستُ في رشاقة وهي تقول : شكراً لك يا « سامي » .

واستأنفتُ تتحدثُ في شئون حياتها أثناء غيبتها في « استانبول »
وكانت تُفعمُ أحاديثها بوصف ما لقيتُ في تلك المدينة العظيمة
من حفاوة وتكريم . فقد أغدقَ عليها سراًة المدينة وعليتها ألواناً من
الهدايا والتحف . ولقد تنافسوا في التودد إليها ، والتعلقُ بها بكل سبيل ،
ولقد ضاقتُ ذرعاً بما كان ينتهي إليها من رسائل المعجبين .

وتسامتُ برأسها في خيلاء ، وهي تقول : حينما تزورنا في منزلنا
سأريك هذه التذكريات من الهدايا والرسائل .

وجدتُ ثوبها لتسوَّى جوربها ، فبدتُ ساقها بديعة التكوين ،
ولاحتني أسارقها النظر ، فأسبلتُ ثوبها متعجلاً ، وجابهتني بنظرة
زاجرة ، وهي تبسمُ لي قائلة : خبيث !

لم تستغرقُ هذه الحادثةُ إلا لحظات ، ولكن أثرها تعمق في

نفسى ، فلم يَبْرَح . وشعرتُ بيقظةٍ تسرى فى أوصالى ، يُدْكِ لَهِيْبَهَا
مجاورةُ الفتاةِ لى ، والتصاقُ جَسَدِهَا بى .

واقترَب موعِدُ الإفطارِ ، فنهَضْنَا نعوْدُ إلى داخلِ الدارِ ، وورغبتُ
« تهانى » فى أن تغسلَ يديها ، وكانت الطسوت والأباريقُ مُعَدَّةً ،
فطاب لى أن أحملَ لها الإبريقَ ، وأن أصبَّ منه على يديها ، وأنا
أتوسَّم هاتين اليدين البَضْمَتَيْنِ ، تنساب عليهما رَغَوَاتُ الصابونِ ،
وهما تتلوَّيان فى نعومة ولىان . على حين كانت « تهانى » تعابثنى فى
الفينة بعد الفينة بما ترشَّنِي به من رِذَاذِ ، ثم أراها تتدانى منى بوجهها ،
ولا تلبث أن تتراجعَ فى تضاحكٍ ومِراح . وفيما نحن كذلك كاد وجهها
يلامس وجهى ، فإذا شَبَّح « فتحية » يطالعنى ، وعينها تنظرُ إلىَّ ،
فلاحقنى ارتباكُ ، وسقطَ الإبريقُ من يدي ، فاندلق ماؤه على الأرضِ ،
وكاد يصيبُ ثوبَ « تهانى » لولا أنها قفزتُ مرتدَّةً ، فوقعتُ عينها
على « فتحية » منصرفةً تحثُّ خُطَاها ، فلوتُ « تهانى » رأسها إلىَّ ،
وحدَجَّتْنِي بنظرةٍ حاميةٍ ، وهى تقول : يالك من غرير !

ثم جذبتُ المِنْشَفَةَ منى ، ومسحتُ يدها على عَجَلٍ ، وصَحِبْتُنِي
ونحنُ فى صمتٍ إلى حجرةِ الطعامِ ، وأذَانُ المغربِ تتجاوَبُ به
أرجاءِ الدارِ .

وشعرتُ بأن « تهاني » تقرُّص يدي ، وهي تقول :
ما ذا تستحقّ من عقوبة لقاء فعلتك التي فعلت ؟
والفينا أهلَ الدار وضيقاتها متحلّقينَ حولَ المائدة ، ما خلا
« فتحية » وجدتها السيدة « هاجر » .

وأخذتُ « تهاني » مجلسها بجاني ، وشرعنا نطعم ، وكانت
لا تنفكُ في أثناء الأكل تتابع سرارها لي ، تتناول الطاعمينَ بألوانٍ
من النقد والملاحظة في سخرية واستهزاء ، لا ترحم من لسانها أحداً ،
حتى جدتها العجوز . ولم يكن يُغنيها أن تتحدّث ، وأن أوليها سمعا ،
وإنما كانت تقتضيني أن أعلنَ موافقتي على ملاحظاتها ، ومجاراتي
لما تبديه من ألوان الاستهزاء ، فإذا توانيتُ أو بدا عليّ فتور ، طفقتُ
تغمزني تارةً وتقرُّصني تارةً أخرى ، فأعجلُ بالإيماء إليها ، أو أبتسم
لها ، علامة الرضا والإقرار !

على أنني كنتُ في سريرة نفسي أحسّ بأني ضائق بهذا كله ،
وأني لا أستطيع استساغة هذا العبث الجريء ، والتطاول البغيض .
وكثيراً ما خطرتُ « فتحية » بيالي ، فشغلتنني حيناً عما أنا فيه ،
وأشعرتني بأن من حقها عليّ أن أسأل عنها ، وأن أتلفَ بها . بيدَ
أني لم أملك القيام بشيء .

وفرغنا من الطعام ، فانصرفنا إلى البهو ، ننتظر شروع القارئة في إنشاد بعض الموشحات في التمدح بالنبي ، وكانت القارئة متربعة على حَشِيَّتِهَا تحسَى القهوة وتجذب أنفاس الدُّخان في غير هوادة ولا رفق . واستقبل البهوُ جديداً من وفود الزوّار ، رغبةً في تشنيف الأسماع بالإنشاد ، ولكن القارئة ظلت مُكَبَّةً على قهوتها ، تتناول منها قَدْحاً بعد قَدْح ، مسحورةً بدُخانها ، تُشعلُ منه لِفَافَةً بعد لِفَافَةٍ ، وبينها وبين جارتها حديث جِيَّاشٍ موصول .

وطال بنا الإلتظار ، وبدت « تهاني » متململة ضَجِرَةً ، وهمستُ لى برغبتها في أن تغادرَ البهوَ معاً ، فاستميلتُها بعضَ الوقت ، ترصداً لفرصة مواتية .

ولاحت الفرصة المنتظرة ، فاتهبزتها لى وحدى ، إذ نادتنى من أقصى البهو إحدى الزائرات ممن أعرف ، فهُرِعْتُ إليها أستقبل تحيتها لى ، وتلطفها بى ، وما لبثتُ أن تسللتُ أسارق الخطأ إلى الدّهليز ، فصادفتُ هنالك « أمَّ خُصِير » ، فأقبلتُ عليها مشبوبَ النفس أسألها :
أين « فتحية » ؟

— لست أدري أين هي ؟ ربما وجدتها في حجرة الحاضنة
« مَسْرَات » .

وَيَمَّتْ الْحَجْرَةَ أَعْدُو إِلَى مَكَانِهَا الْمُنْعَزِلِ ، وَبَلَعْتُهَا مَبْهُورَ الْأَنْفَاسِ
فَأَلْفَيْتُ الْحَاضِنَةَ « مَسْرَات » عَلَى سَجَادَتِهَا مَسْتَرخِيَةً وَسَنَى تَفْسُحُ
الْمَجَالِ لِمَعْدَتِهَا ، كَيْ تُوَدِّيَ مَهْمَتَهَا فِي هَضْمِ الطَّعَامِ ، فَهَزَزْتُهَا بِقُوَّةٍ وَأَنَا
أَقُولُ : أَيْنَ « فَتْحِيَّة » ؟ أَيْنَ « فَتْحِيَّة » ؟

فَانْتَبَهَتْ الْحَاضِنَةُ مُزْعَجَةً غَضْبِي ، تَقُولُ :
أَلْهَذَا جِئْتَ تُقَلِّقُ رَاحَتِي ؟

— أَرْجُو مِنْكَ أَنْ تَخْبِرَنِي أَيْنَ « فَتْحِيَّة » ؟

فَتَشَاءُ بَتٌ طَوِيلًا ، ثُمَّ قَالَتْ فِي صَوْتٍ مَتَقَطِّعٍ :

كَانَتْ هُنَا ، وَخَرَجْتُ ، لَا أَدْرِي إِلَى أَيْنَ ؟

فَتَرَكْتُ حَجْرَةَ الْحَاضِنَةِ أَهْرُولَ ، وَهِيَ تَشِيْعُنِي بِقَوْلِهَا :
حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ !

ضَاعَ جِهْدِي فِي الْبَحْثِ عَنِ « فَتْحِيَّة » أَيْنَ تَكُونُ ، وَكَانَتْ

كَمَا أَخْفَقْتُ فِي الْعُثُورِ عَلَيْهَا فِي مَكَانٍ ، تَوَقَّدْتُ رَغْبَتِي فِي مُوَاصَلَةِ الْبَحْثِ

وَالِاسْتِقْصَاءِ ، وَأَنَا مَعْتَزِمٌ أَصْدَقَ الْإِعْتِزَامِ أَنْيَ لَا أَكَادُ أَرَاهَا حَتَّى

أَهْوِيَ عَلَى يَدَيْهَا أَسْتَغْفِرُهَا مِمَّا كَانَ ، وَأَفْرَعُ بِهَا إِلَى مَلَاذِ أَمِينٍ يَحْمِينِي

مِمَّا أَعَانِيهِ مِنْ أَلْمٍ وَضَيْقٍ .

وَاحْتَوَانِي الدَّهْلِيْزُ مَرَّةً ثَانِيَةً ، فَفَاجَأْتَنِي « تَهَانِي » ثَائِرَةً مَتَمَّرَةً ،

وجابهنّى تقول :

أَمِنَ الذُّوقَ أَنْ تَتْرَكَ ضَيْفَتَكَ وَحَدَّهَا ؟ أَيْنَ كُنْتَ ؟

فَأَغَصَّتْنِي كَلِمَاتُهَا ، وَوَجَدْتُنِي أَنْفَجِرَ قَائِلًا :

كنتُ أبحثُ عن « فتحية » .

فَرَنْتُ ضِحْكَهَا عَابِثَةً هَوَّجَاءَ ، فَتَابَعْتُ قَوْلِي :

أليستُ هي ضيفتي أيضاً ؟

فَلَبِثْتُ تُصَوِّبُ فِي نَظَرِهَا وَتُصَعِّدُهُ ، وَهِيَ فِي وَقْفِهَا تَتَلَوَّى عَلَى

نَحْوِ أَثَارِ بَيْنِ جَوَانِحِي غَرَائِبَ إِحْسَاسٍ ، ثُمَّ قَالَتْ فِي تُوْدَةِ الْمَتَرَفِّعِ :

من هي « فتحية » ؟

— إنك تعرفينها . . . « فتحية » بنت « محبي الدين أفندي » ..

— أوه . . . تلك الفتاة السُّوقِيَّةُ الَّتِي تَلْبَسُ الْجُورْبَ مَقْلُوبًا ؟

واسترسلتُ في ضحكاتها العابثة الهوجاء ، فوجدتني أقول صارماً

عنيفَ الالهجة : كَفَى يَا « تَهَانِي » !

ولكنها لم تكتفِ ولم تزدجر ، فمضتُ تصبُّ على رأس « فتحية »

أوضارَ النعوت والأوصاف .

وكنتُ واقفاً أحدقُ فيها ، وخلفَ ضلوعي عاصفةٌ تزلزلُ كياني .

وتركزت نظرتي في فيها ، فلم أعد أرى من ذلك الجسد الثعبانى إلا
هاتين الشفتين العظيمتين تتلعبان في عنفٍ وجبروت .

ودار رأسى ، فلم أعد أرى ما أفعل ، ولكنى تبينت أنى رفعت
يذى ، كأنى أريد أن أهوى بها على غريمتى التى تمدت فى جراءة
وتطاول ، فإذا أنا أهجم عليها ، فأحتويها بين ذراعى ، وأندفع فى
تقبيل فيها ، كأنى أمرقه تمزيقاً .

وأحسست بحركة مفاجئة ، فالتفت أستوضح ما جرى ، فألفيت
«فتحية» واقفة مع «أم خضير» ، ولم يعزب عن عيني أن أرى وجه
«فتحية» بادية الامتقاع ، مصعوق النظرات .

وتقدمت منا «أم خضير» فى خطوات عابثة ، وكأنها لم تلاحظ
شيئاً مما كان ، وهى تجر يد «فتحية» جرّاً ، وتقول فى غير مبالاة :
كنت تبحث عن «فتحية» ، فجننتك بها .

وسرعان ما رأيت «فتحية» تدور بوجهها عنى ، وتنفلت عجلية ،
تخفيها معاطف الدهليز .

ومكثت لحظات فى ذهالة أعيا بإدراك ما يجرى حولى ، فلما ذهب
الروع عنى ، طوّفت ببصرى ، فلم أجد من أحد ، فانطلقت فى الدهليز

أَنْشُدُ « فَتْحِيَةَ » ، وَرَأَيْتُ « أُمَّ خَضِيرَ » مُقْبِلَةً عَلَيَّ ، فَسَأَلْتُهَا مَلْهُوفَ
النَّفْسِ : أَيْنَ « فَتْحِيَةَ » ؟

فَابْتَسَمَتْ ابْتِسَامَةً عَرِيضَةً ، وَوَدَّعَتْ مِنِّي تَقُولُ :
هَدَيْتُ مِنْ ثَائِرَتِكَ . . . لَا تُتَلَّقِ بِالْأَلْشَاءِ . . . سَأُصْلِحُ لَكَ
الْأَمْرَ . . . عَوَّلْ عَلَيَّ !

فَسَدَّدْتُ إِلَيْهَا نَظْرَاتِي ، أَسْتَجِلِّي مِنْهَا مَا تَعْنِيهِ ، فَأَرْدَفَتْ تَقُولُ :
اذْهَبْ إِلَى حَجْرَتِكَ ، وَانْتَظِرْنِي هُنَاكَ !
وَوَجَدْتُنِي أُذْعِنُ لَهَا ، فَأَقْصِدُ إِلَى حَجْرَتِي عَلَى الْفُورِ .
وَضِيقْتُ بِالِانْتِظَارِ ذِرْعًا ، وَأَنَا أَشْعُرُ بِأَنِّي حَبِيسٌ لَا أَسْتَطِيعُ
الْفِكَالَ .

وَهَزَّتْ مَسَامِعِي خَفَقَاتُ أَقْدَامِ ، وَأَخَذْتُ عَيْنِي « أُمَّ خَضِيرَ » ،
وَقَدْ أَحَاطَتْ يَدُهَا بِكَتِفِ « فَتْحِيَةَ » ، وَمَا لَبِثْتُ أَنْ وَاجَهْتَنِي بِقَوْلِهَا
فِي لَهْجَةٍ مَكِينَةٍ : « فَتْحِيَةَ » لَهَا عِنْدَنَا مَقَامٌ كَرِيمٌ . إِنَّهَا صَاحِبَةُ الْبَيْتِ ،
وَرِضَاهَا أَمْرٌ لَا يَدَّ مِنْهُ . مَا لَنَا وَاللَّضِيفِ الدَّخِيلِ الَّذِي لَيْسَ مِنَّا ،
وَلَيْسَ لَهُ فِي قَلْبِنَا مَكَانٌ ؟ !

وَسَكَنْتُ قَلِيلًا ، ثُمَّ دَفَعْتُ « فَتْحِيَةَ » نَحْوِي فِي لَطْفٍ ، وَهِيَ
تَقُولُ لِي : تَقَدَّمْ لِتَصَالِحِهَا . . .

فما أسرع أن هُرِغْتُ إلى « فتحية » أمسك بيديها أضغطُهما في
اهتياج ، فأحسستُ بها تدسُّ وجهها في صدري وهي تنشج ، فطوّقتُها
بذراعيّ الأطفها ، فما إن رأتنا « أمٌ خضير » على هذه الحال ، حتى
خرجت خفيفة الخطو ، وأقفلت وراءها الباب .

وظللنا كذلك حيناً حتى أمسكتُ « فتحية » عن النشيج ،
وشرعتُ تتطلع إليّ ، فتواصلتُ نظراتنا ، ولحّتُ شفيتها بمختلفان ،
فما هي إلا أن أهويتُ على فمها أوسعهُ من تقبيل !
وكان عناقٌ طويل ...

١٣

وفي الغداة تركتُ فراشي ولمّا تبلُغ الساعة السادسة ، على غير
ما تعودتُ .

وتسللتُ من البيت أتقى أن تقع عينُ « فتحية » على .
وأمضيتُ يومي في المدرسة ، كأني نائم أحلم ...

وملك نفسي شعوراً بأنني قد انفسحتُ لي دنيا جديدة بهيجة لم يكن

لي بها سالفُ عهد .

ولاحظ على قريني « خيري » أنى فى حالة تبعثُ على التساؤل
والاستخبار ، فقال لى : مالك اليوم يا « سامى » طلقاً بساماً لا تنتهبي
عن مَرَحٍ ؟ هل كسبت الورقة الأولى من ورقِ النصيب ؟
فأجبتُه فى نشوة : ربحتُ الدنيا كلها يا « خيري » !
فهزَّ كتفيه لى ، ولوى رأسه عنى .

وترامى إلى سمع رفيقنا « الزغبى » هذا الحوار ، فدنا منى وهو
يتفحصنى بنظر ثاقب ، ويربّت كتنى مبتسم الثغر ، وقال :
إنى أعرفُ السرَّ فى هذا الانقلاب !

فتلألأت على وجهى غبطة ، وجعلتُ أقهقه ، ثم أخذتُ بيده ،
وملتُ على أذنه هامساً أقول : أمّا أحببت فى حياتك ؟
فسمعتُه يقول : أوه . لى فى هذا الميدان جولات وجولات !

ومضينا معا يصارحُ كلانا صاحبه بأقاصيصِ قلبه ، على حين وقف
« خيري » بجوار الحائط ينظرُ إلينا فى تطلع واستغراب ، وهو يقرض
أظفار يده !

وكان شوقى إلى « فتحية » ينمو فى هذا النهار ساعةً بعد ساعة ،
فلما قفّلتُ أصيلاً إلى المنزل ، لم يكن لى من همٍّ بادئٍ بدءٍ إلا أن
أسارعَ إلى السؤال عنها ، فأعلمونى بأنها بارحتُ الدارَ فى الضخوة

الباكرة ، فسرعان ما غاضت بشاشتي ، واغتمت نفسي ، ومضني أسف ،
فيممت حجرتي ، تذهبُ بي المواجسُ كلَّ مذهب .

وبعدَ قليلٍ لزمتُ النافذةَ أروحُ عن نفسي ، وأشغلُ ناظري
بالتطلع إلى حديقة الدار . وبينما أنا منسرحُ الفكر في آفاقِ شتى لحتُ
طينين يجوسان خلال الشجر ، فمددتُ عيني أتبينُ : لمن الطيفان ؛ فوضح
لي أنهما أخى و « تهناني » يسيران جنباً إلى جنب ، فوجدتني مهتماً
أرقيهما وأتقصي حركاتهما في دقة ، ثم تركتُ النافذة ، وقصدتُ إلى
الحديقة أتبذلُ منها مكاناً مستوراً أرى منه دون أن تنالني العيون .

وكان جلياً أن أخى بالغُ التلطفِ « تهناني » يُرَبَّتُ يدها ،
ويداعب خدَّها ، ويُسرُّ إليها بعضَ كلمات تتلقاها مريحةً طروباً
تُرسلُ ناعمَ الضحكات .

وألفيتهما يتجهان إلى الباب ، والمركبةُ هنالك في انتظارهما ، وماهى
إلا أن رأيتُ « إجلال هانم » هابطة على السلم تلحق بهما ، فركبوا
جميعاً . واعتلى « مدبولي » كرسيَّ السيّاقة يفرقع بسوطه ، فما لبثتُ
المركبةُ أن دارت عجلاً تطوي الطريق .

ورجعتُ أدراجي أستشعرُ انقباضاً ووحشة ، وأسائلُ نفسي :

كيف ساغ « تهاني » أن ترتحلَ عن الدار ، دون أن تُحَيِّنِي تحيةَ التوديع ؟

وعجبتُ لأخي ، كيف جدَّ من أمرِهِ هذا الإقبالُ على « تهاني » وذلك التلطف بها ، وهو الذي كان لا يبشُّ لها ولا لجدَّتِها ، بل لقد كان ينظر إلى « تهاني » نظرةً إصغار ، ولا يُعيرُها أدنى التفات ؟ وفي صُبحِ غدى ، لم أأكدُ أخذُ مكاني من المركبة قاصداً إلى المدرسة ، حتى ملتُ على « مديولي » أسأله مداعبا :

إلى أين ذهبتَ بالركبِ أمسِ ؟

فتضحك الرجلُ قائلاً :

كانت نزهة طيبة ، طُفنا فيها بالشوارع ، وقصدنا بعضَ المتاجر ... فقلتُ له : هل اشتريتَ شيئاً ؟

— ملأنا المركبةَ بشتى الأشياءِ .

وخلوتُ بنفسى في المركبة يستغرقنى التفكيرُ في حديثِ السائق ،

وفيا كان بين أخى و « تهاني » أثناء طوافيهما في الحديقةِ أمسِ .

١٤

انصرمَ أسبوعان عانيتُ فيهما أشدَّ القلق والاضطراب ، وعلى الرغم من شوقى المشبوب للقاء « فتحية » لم تطوِّع لى نفسى أن أزورها فى دارها . . .

ويا طالما تمثَّل لى أن ما كان بيننا فى اليوم المعهود قد أساءَ إليها ، وأنها واجدةٌ علىّ ، مستريبةٌ بى ، نافرةٌ منى .

وكنتُ عصرَ يوم فى طريقى إلى البهو ، عائداً من المدرسة ، فصادفتنى « فتحية » بالباب ، فسرتُ فى كيانى رجفةً ، ولكنى تمالكتُ ، وتدانيتُ منها أحييها وأنا صامت ، وسرتُ معها خطوات ، ثم قلت : كِدْتُ أياس من عودتك يا « فتحية » . . .

فأجابتنى فى لهجة مألوفة : كانت عندنا شواغل .

ومضيتُ بها إلى حجرتى ، وبين جنبيَّ يشبُّ ضرام الشَّعْف والحنين ، والدنيا من حولى تتألق وتزدهر ، وتَشيعُ فيها نَشطةُ الحياة .

وما إن احتوتنا الحجرة ، حتى التفتُ إليها متودداً عطوفَ الالهجة ،

أقول : أ كنتِ ببابِ البهوِ تنتظرينِ مقدِّمى ؟

فَسَمَتْ إِلَىٰ بَعِينِينَ كَطَالِعَتَيْنِ قَرَأْتُ فِي نَظْرَاتِهِمَا أَوْضَحَ جَوَابٍ .
وَمَا أُسْرِعُ أَنْ مَلَكَتُهَا بَيْنَ ذِرَاعِيَّ ، وَكَأَنِّي قَدْ مَلَكَتُ
الدُّنْيَا جَمْعَاءَ .

وامتدت إقامة « فتحية » في البيت أسابيع ، وطاب لي مقامها .
وتوشجت بيني وبينها أواصرُ حبِّ مكين ، ووجدتني عظيمَ الثقةِ
بنفسي ، قادراً على أمرى ، ناشطاً للعمل ، أستذكر درسي غيرَ وان ولا
ملول ، وهي عن كُتُبٍ مني تواصل النظر يز . وشعرتُ بأنني معنيٌّ
بملبسي وزينتي ، حريصٌ على تنظيم حُجرتي ، أستعينُ « فتحيةً » في
تحقيقِ ما أصبو إليه من أناقة ونظافة وتنسيق .

وقضيتُ في صحبتها هذه الفترة من أيامي هاني النفس ، باريء
البال من شوائب الحياة ، يتطلع كلانا إلى الغدِ المرجوِّ بعين الثقةِ
وَالِاطْمِئْنَانِ ، وَيُحِسُّ كِلَانَا أَنْ عَيْشَهُ قَدْ أَصْبَحَ مَوْصُولًا بِعَيْشِ صَاحِبِهِ ،
بيننا تلاؤم واندماج ، لا فراق بعده ولا انفصام .

وتكررت هذه الفترات المدودة التي نُقْضِيهَا « فتحيةً » معنا في
الدار ، ونحن نستمرُّ نُشُورَةَ الصُّبْحَةِ ، وَمُتَعَةً اللَّقَاءِ ، لا حسابَ
ولا ارتياب .

وفي أثناء ذلك كله ، لم يُجْرِ لِسَانِي بِاسْمِ « تَهَانِي » ، وكذلك

« فتحية » لم تتحدثُ إلىَّ في شأنِها أىَّ حديث .
ومما ساعدَ على ذلك أن « تهانى » لم تطأ قدمها أرضَ البيت ،
منذ ذلك اليومِ الذى خرجتُ فيه هى وجدَّتُها بالركبةِ يصحبُهما أخى .
على أنى عجبتُ لهذا الإقطاعِ كيف يكون ، ولم أقفَ له على كُنهٍ ،
وإن كنتُ قد طُبتُ به نفساً ، ووَدِدْتُ أن تَظَلَّ « تهانى » خلفَ
ستائرِ النسيانِ .

ولكن ما هى إلا أسابيع ، حتى جعلَ يَهْزُ سَمْعِي طنينُ التهامسِ
بين الخدم ، فكنتُ أتبيِّنُ فى أحاديثهم الغامضةِ اسمَ أخى مقروناً باسمِ
« تهانى » .

وكانت « أمُّ حُضَيْرِ » حينَ تَقْدَمُ إلى حجرتى لتعالجَ تنظيفها
وترتيبها ، لا تفتأ تدور حولى بأطرافٍ من الكلامِ فى شأنِ « تهانى »
وأخى ، تشير بها فضولى ، ولا تَشْفِي غليلي ، فأراها حيناً تَغْمِزُ وترمزُ ،
وحيناً تقتضبُ الأنباء والأقاصيصَ ، وتارةً تتساءلُ عابثةً : لماذا انقطعتُ
« تهانى » عن زيارة البيت كما كانت تفعل من قبل ؟

وذات ليلة ساقَتْنِي حُطَايَ إلى حجرةِ الحاضنة « مَسْرَاتِ »
فلَقِيتُ معها زوجَ أخى مقبلةً عليها تتحدثُ فى حَمِيَّةِ واهتمام ، فلما
رأتهِ زوجُ أخى أمسكتُ عن الكلامِ عامدةً ، ولكنَّ الحاضنةَ لم

تتمالك أن تسترسلَ في زجيرةٍ وحيدةٍ ، وأن تستنزلَ لعناتِ السماءِ على
نفوسٍ تملؤها الخيانةُ والغدرُ ، بها تنقوضُ دعائمُ البيوتِ ، وعلى يديها
يتمُّ خرابُ الأسرِ .

ولم يخفَ عنى أن زوج أخى تكفكف أنداءَ من دموعٍ ، وأن
محياتها يرسم عليه طابعُ الأسى الدفينِ ، فعزَّ على نفسى ما هى فيه ،
ورأيتنى أقربُ من مكانها ، فأخذُ يدها وأرفعتها إلى فمى أطبع عليها
قبلة رقيقةً ، وأنا أهمهم :

أنتِ أكرمُ من أن يعاملَكِ أخى هذه المعاملة !
فمسحتُ على رأسى ، وقبلتُ جبيني فى حنان .

ولوحظ أن أخى يكثرُ من التغيُّبِ عن الدارِ ، فإن اتفق لى أن
أراه ، لمحتُ منه حالا غيرَ ما كنتُ أعهدُ ، إذ كان يحاول أن يبدو فى
مظهر من الأناقة والرشاقة والمِراح ، وهو الذى كان مشلا واضحا للتوقُّرِ
والترنُّمِ والإحتشامِ .

إلا أن هذا المظهرَ الطارىءَ لم يكن بقادرٍ على أن يسترَ الشيخوخةَ
فى موكبها الجارفِ ، فقد ارتسمتُ على وجه أخى غضون يَرَّحَمَ بعضها
بعضا ، وكسَّته مَسْحَةٌ من الشحوبِ تنبئ عن اضمحلالِ قواه ، وإن
كانت سنُّه لا تؤهِّله لتلك الشيخوخة العجلى .

واعتكفتُ زوجُ أخى فى حجرتها ، وألزمتُ عينيها نظارةً زرقاء ،
ولم تكن تأنسُ إلا بقاء السيدة « هاجر » ، ففى تطيل الجلوس إليها ،
ويطيب لها أن تتحدث معها ، وأن تستمع لما تُفيضُ فيه جليستها من
حديث هادى وديع يبعثُ الطمأنينة والرضا .

وفى الحين بعد الحين تخلو « أمُّ خضير » بزواج أخى ، تنفض بين
يديها جعبَةً من الأخبار فى همسٍ وسرّار .

وتلبّد فى جوّ الدار وجوم ، فكأننا كنا نحيا فى ما أتمّ صامتٍ
لا تنقضى أيامه ولياليه .

وتواردت الأيام ، تكشف الستار شيئاً فشيئاً عما تمّ بين أخى
و« تهانى » من زواج ، ولكن هذا النبأ على خطره لم يكن يجرؤ على
أن يجرّ به لسان !

لبثتُ أربعة أشهر ، تتوثقُ فيها علاقتي « بفتحية » . وحين يوم تجلّى لي فيه أنها تعالِبُ طارئاً من الإعياء ، فأخذ وجهها يبدو عليه الامتناع ، وجعلت تَجَنِّحُ إلى الركود ، ويُسرِعُ إليها الغشيان . . . وكثيراً ما رأيتها شاردة النظرات ، غافلة عن مُناقَلَتِي الحديث . وازداد على مرّ الأيام امتناعها وتثاقلها حتى انطلق لسانها بالتأوّه على كرهه ، ولم تعد تطيق صبراً على ما بها من آلام .

وفي ظهيرة يوم ، وأنا بالمدرسة مع « الزغبى » فى فترة الراحة ، وقفنا نتجادبُ أحاديثَ الشباب . فانبرى « الزغبى » يتحدّث عن الحبِّ وأحداثه ومُعقباته ، وجعلتُ أستزيدُه من الإفاضة فى هذه الشؤون ، وأستوضحُه ما غمضَ من الدقائق . وبعثتُ لآح فى مخيلتي طيفُ « فتحية » فى مظهرها الجديد ، فبدأتُ أكتنهُ ما بها من إعياء ، وما تعانیه من انقلاب . ودهانى قلق ، ثم عرانى سُهُوم ، ولكنى وجدتنى قد استخفّفتنى فرح مفاجيء ، فأقبلتُ على « الزغبى » أقبله طرُوباً مهتاج النفس .

ولما كانت أُوْبَتِي إلى المنزل بعدَ العصر ، أُلْفيتُ « فتحية »
قابعةً في حجرتي ترتقب مَقْدَمِي ، فوقفتُ حِيَالَهَا أتأملها ، وقلبي يكاد
يَطْفِرُ من بين الجوانح ، فَسَمَتُ إلى بعينها كأنها تَعْجَبُ مما ترى مني ،
وتسأل عن سِرِّ ووقفتي وتأملني ، فأمسكتُ بيدها الألفها ، وهمستُ في
أذنها قائلاً :

أَغْرِيْبُ عَنْكَ أَنَا يَا « فتحية » حتى تُخْفِي عَنِّي هذا الأمر ؟
فَاعْتَمَدْتُ بِرَأْسِهَا عَلَيَّ كَتْفِي ، وَقَدْ أَسْبَلْتُ جَفْنَيْهَا دُونَ أَنْ تُجِيبَ .

وَاحْتَضَنْتُهَا مَشْغُوفَ الْفُؤَادِ أَقُولُ :

مَا أَسْعَدَنِي بِهَذِهِ الْبُشْرَى يَا حَبِيبَتِي !

وَسَرَّتْ فِي كِيَانِي شَجَاعَةً وَاقْتِدَارًا ، وَالتَمَعْتُ عَيْنِي التَّمَاعَةَ التَّاهِبَ
والتدبير ، ولاحظتُ عَلَيَّ « فتحيه » ما أنا فيه ، فنظرتُ إلى نظرة
استخبار ، فقلتُ : ستعلمين كلَّ شيء !

وَانْدَفَعْتُ مُدْبِرًا عَنِ الْحِجْرَةِ ، قاصداً حِجْرَةَ زَوْجِ أُخِي « مَوَدَّةَ
هَانِم » فَصَادَفْتُهَا عَلَيَّ الْمَتَّكَا تَجْتَذِبُ أَنْفَاسَ لِفَاقَتِهَا ، فَارْتَمَيْتُ عَلَيَّ
صَدْرُهَا أَوْسَعُهَا عِنَاقًا وَتَقْبِيلًا ، فَابْتَسَمَتْ لِي وَهِيَ تَقُولُ :

جِئْتَ تَطْلُبُ شَيْئًا لَا مَحَالَةَ .

— شَيْئًا عَظِيمًا فِيهِ سَعَادَتِي جَمْعًا !

فرفعتُ نظَّارتها الزرقاء عن عينيها شيئاً ، وحدقتُ في وجهي
متعجِّبة ، وقالت : أى شيء يا « سامى » ؟

وفى غيرِ تردُّدٍ ألقيتُ جوابي قائلاً :

إننى أحبُّ « فتحية » وأريد أن أتزوجها . . .

فعضمتُ دهشتها ، وقرأتُ في عينيها الحيرةَ البالغةَ ، وجعلتُ

تبعثُ من بين شفتيها هممةً لم أستبِنَ منها كلاماً . ثم قالت لى :

نفكرُ فى هذا الأمرِ يا « سامى » .

فلم أبرحُ موقفي منها ، وتشبثتُ بها أقولُ مُلِحاً :

فيمَ التفكيرِ ؟ ليتكِ تعلمين مبلغَ حُبِّي إياها !

وظفقتُ أفضي إليها بما بينى وبين « فتحية » من هوى مشبوب ،

وأسرُدُ لها كيف نشأت هذه العلاقة ، وكيف تطورت ، وما زلتُ

أديرُ الحديثَ حتى أمطتُ لها اللثامَ عن « الحادثِ السعيد » الذى

تنطوى عليه الفتاة !

فما أسرع أن ألقيتُ زوجَ أخى مأخوذةً متجهمةً تعالجُ أن تنبِسَ ،

فيعيياً لسانها بالكلام . ولم تملكِ إلا أن تنكسَ رأسها وهى تقول :

لا بدَّ أن أتحدثَ إلى أخيك فى هذا الأمرِ !

فرونوتُ إليها وقتاً ، ثم صحتُ بها محتدداً :

فليتركنا أخى وشأننا . . . إنه فى شغلٍ عنا ، لا يعنيه شىء
من أمرنا !

وبعد أيامٍ رأيتُ أخى فى المنزل ، فتوقعتُ أن يدورَ بينه وبين
زوجهِ حديثٌ فى شأنى مع « فتحية » ، واستشعرتُ قلقاً ورهبةً ،
وجعلتُ أجولُ فى الدار لا أجدُ لى من قرار ، وأنا أتسَمُّ ما يجرى فى
حجرة أخى وزوجهِ . وبينما أنا كذلك رَوَّعَنِي صوتهُ صائحاً فى البهو
يقول : ما هذه المفاسد التى تقعُ فى بيتى ؟ أنا لا أقبلُ فى البيت
مُجَانِبَةَ الصون والعفاف ، فلترحل الفتاة وَجَدَّتْهَا على الفور !

فانبسطتُ على عيني غشاوةً ، وأدركنى شبه إنماء ، فتهالكتُ
على مقعد كان منى غير بعيد ، وتناهى إلى سمعى هرج ومرج : أخلاط
من أصوات تعلق وتهبط ، وخفقات أقدام تغدو وتروح .

وخَيْلٌ إلى أنى أسمعُ صوتَ « فتحية » خلال هذه الجلبة ،
فشبتُ النار فى قلبى ، ونهضتُ متحفزاً مستوفزاً أعدو ، وواصلتُ
عدوى ، حتى قاربتُ البهو فى غير وعى ، فرأيتُ أخى ماثلاً متنفخاً
يهتزُّ شارباه ، وقد التفتُ به لمةً من الخدم والأتباع ، وبين يديه
خادمه الخاصُّ « سعد الله » فارع القامة ، صلب العود ، عريض
الألواح . فلما لمحنى أخى تقدّم خطوات ، وهو يلوِّحُ بعصاه مُغضباً

مزجراً يقول : أنت فعلتَ هذا؟ أنتَ يكون منك هذا الإثم؟
لَتَذُوقَنَّ وَبَالَ أَمْرِكَ !

فَدَلَّفْتُ إِلَيْهِ ذَلِيلَ الْخَطْوِ ، مَطَاطِيءَ الرَّأْسِ ، وَانْحَنَيْتُ عَنْ كَتَبِ
مَنْ يَدُهُ ، وَأَنَا أَقُولُ ضَارِعَ اللَّهْجَةِ : « فَتْحِيَّةٌ » لَا ذَنْبَ لَهَا ، أَنَا النُّسْوَلُ
عَمَّا كَانَ . . . اغْفِرْ لِي زَلَّتِي !

فاعتدل أخى فى وقفته ، واتكأ على عصاه ، وهو يقول لخادمه
« سعد الله » : عليك به ، فأدخله حجرتة ، ولا تدعُه يفارقها ، حتى
أنهىَ إليك أمرى .

فما هى إلا أن وجدتنى قد أهدقتُ بى ذراعان عنيفتان تسوقاننى ،
فتعاصيتُ وتأبَّيتُ ، أتصايحُ وأحاول التفلتُ ، ولكن الخادم لم يدعُ
لى طاقةً بالخلاص ، وإذا أنا قد خارتُ قواى ، وأظلمتُ الدنيا أمام
عينى ، ووجدتنى بعد حين فى حجرتى ، على وسادى ، أبكى وأبكى . .
مضتُ أيام كنتُ فيها كالمحموم ، لا أريمُ فراشى ، ومعى زوجُ
أخى ، تنعبدنى وتتلطفُ بى ، ولا تقصُرُ فى تهوين ما كان على .
وكلما سألتها عن « فتحية » :

أين ذهبتُ؟ وإلى أى مصير سيقَتُ؟ ربَّدتُ كَتِفِي وهى تقول :
لا تكن مهموماً ، ليهدأُ باللك ، لكلِّ شىء دواء !

وَأَبْلَلْتُ مِنْ وَعْكَتِي ، فَتَرَكْتُ مُضْجَعِي ، وَمَا زَالَ شَبَّحُ
« فَتْحِيَّة » يُرَاوِدُنِي ، فُيُنْفِعُ بِالْقَلْقِ نَفْسِي ، وَلَمْ يَشْفِ غَلِيلِي مَا حَدَّثَنِي
بِهِ زَوْجُ أَخِي فِي هَذَا الشَّانِ ، فَجَعَلْتُ أَحَاوِر « أُمَّ خُضَيْر » لِأَسْتَخْلَصَ
مِنْهَا حَقِيقَةَ مَا جَرَى ، فَصَارَحْتَنِي بِأَنْ أَخِي عَمِلَ عَلَى إِرْحَالِ « فَتْحِيَّة »
وَجَدَّتْهَا إِلَى إِحْدَى الضِّيَاعِ ، وَأَنْ « فَتْحِيَّة » بَاتَتْ هُنَاكَ زَوْجًا
لَشَيْخِ الْخَفَرِ !

فَنَزَلَ عَلَيَّ هَذَا النَّبَأُ نَزْوَلَ الصَّاعِقَةِ ، وَوَجَدْتَنِي ثَائِرًا أَسْخَطَ ،
حَاقِدًا أَعْلَى ، وَبَنَيْتُ عَزْمِي عَلَى أَنْي لَا بَدَّ نَاقِضٌ مَا أْبْرَمَ أَخِي مِنْ
عَسْفٍ وَعُدْوَانٍ ، وَأَنَّهُ لَا قُوَّةَ تَحْوُلُ بَيْنِي وَبَيْنَ « فَتْحِيَّة » آخِرَ الْأَبَدِ .
عَلَى أَنْي كُنْتُ لَا أَكَادُ أُهُمُّ بِإِنْفَازِ خُطَّةٍ ، أَوْ إِعْمَالِ تَدْيِيرٍ ، حَتَّى
تَعْتَاقَنِي الْعَقَبَاتِ ، وَيَتَعَاظَمَنِي الْأَمْرُ ، وَأَجِدَنِي فِي شِبَاكِ لَا أَعْرِفُ لِي
مِنْهَا مَحِيصًا .

وَتَعَاقَبَتِ الْأَيَّامُ عَلَيَّ ، فَشَاعَتْ فِي أَوْصَالِي بِلَادَةِ وَاسْتِرْحَاءِ ، وَفَقَدْتُ
كُلَّ هِمَّةٍ وَنَشَاطٍ . أَصْبَحْتُ أَمَلُّ دَرْسِي ، وَلَمْ أَعُدْ أَفْتَحُ مِنْ كِتَابٍ ،
بَلْ لَقَدْ ضَيَّقْتُ ذَرْعًا بِنَفْسِي وَبِمَنْ حَوْلِي مِنَ النَّاسِ جَمِيعًا .
وَكَانَ طَيْفُ « فَتْحِيَّة » يُحَوِّمُ فِي مَحِيَّلَتِي يَسْأَلُنِي :

مَاذَا صَنَعْتَ مِنْ أَجْلِهَا ؟

فتنطوى جوانحي على حَسْرَةٍ واغْتَامٍ ، وأستشعرُ احتقاراً لنفسي ،
وإزرء بما قارفتُ من آثام . . .

وكنتُ في غالبِ أمرى إذا أُوتيتُ إلى حجرتي حاصرتني
ذِكْرِيَّاتُ حُلُوةٍ تتراءى لي فيها « فتحية » جالسةً قُبَالَتِي تَطْرُزُ ،
فأتملّي وجهها الوسيم الوديع ، أو ذاهبةً آيبةً تتعهّدني وتُعني بِمُخَاصَّةِ
شأني ، أو متجدثةً إلىّ في مستقبلنا المرجوِّ بصوتها الرفيق . فأسارعُ إلى
نفسى أتساءل محزوناً محسوراً :

تُرى كيف تعيشُ « فتحيةُ » الآنَ في زوايا الريفِ ؟ وما موقفُها
إزاء ما أُرغمّت عليه من زواجٍ بغيضٍ ؟ لا مِرْيَةَ في أنها تُعانيُ ضرراً
من المهانة والإذلال ، وتُكابِدُ ألواناً من الشَّقْوَةِ والبِئْسَاءِ .

وإذا أنا تضطرم نفسي همّاً وأسى ، وَيَحْضُرُنِي شَبْحُ أَخِي فِي
وقفته الصُّلْبَةِ المُجَنِّحَةِ ، وفي يمينه عصاه يُلَوِّحُ بها في وجهي ، فأعجبُ
كيف جَبُنْتُ حِيَالَهُ حتى فَرَضَ عَلَيَّ ما فرض ، وأنفذَ ما أنفذ ؟ أما
كان حَرِيّاً بي أن أنتزعَ العصا من يديه ، وأن أهوىَ بها فأحطمها
على رأسه ؟

وتعروني نوبةً أفقدُ فيها رشدي ، فيعلو صوتي بِشْتَمٍ وسباب ،
وأنهالُ على نفسي بِمُجْمَعِ يدي ضرباً ولكما ، وأظلُّ كذلك مهتاجاً

حتى أسقطَ على سريري كالجدارِ يتهاوى . فإذا نهضتُ عندَ الصباح
أزائلُ فراشي ، وجدتُ الوِسَادَ مُخَضَّلاً بالدموع .

ولما عدتُ إلى المدرسة لم تخفَ حالتى على رفيقى « الزغبى »
و « خيرى » ، فأقبلا علىَّ يتعرفان خبيثة أمرى ، ويستجلبان مكنونَ
سرِّى ، فأجبتُهُما : أريد أن أخلصَ من هذه الدنيا ... أريد أن أنتحرَ .
فوجدتُ « خيرى » يَفْغَرُ فاه مرتاعاً ، ويرتدُّ خطوات ، ولكن
« الزغبى » جعل يتلطفُ بى ، ويأخذُ بيدي ، وهو يقول : ما عليكَ
من بأس ، هَدِّئِ من رَوْعِكَ ، ماذا فى الأمرِ ؟ اُصْدَقْنِي .

فَسِرْتُ معه خافضَ الرأسِ صامتاً ، أحاولُ أن أستبقىَ فى سرِّيرتى
ما يشغُلُنِي ، ولكنى ما عتَمْتُ أن ألفتِنِي أنفجرُ نافضاً دَخِيلَةَ نفسى ،
مُفَضِّياً بكل ما أقاسيه من متاعبَ وهموم . وختمتُ حديثى بقولى :

أبعدَ هذا تحسب أن خيراً لى أن أعيشَ ؟ أليس الانتحارُ أولى بى ؟
فتضحك « الزغبى » وهو يضعُ يده على منكبى ، وقال :

ما زلتَ طفلاً يا « سامى » لا خِبرَةَ لك بالحياة . إن ما جَرَى
لك أهونُ من أن يُحسَبَ له حساب . سوف تنسى ما كان بينك وبين
فتاتِكَ ، وسوف تقعُ فى شباكِ حبِّ جديد .

فصحتُ على الفور : معاذَ الله أن أخونَ لها عهداً !

ما شأنُ « تهباني » بي ؟

ألا بعدًا لتلك النزعات التي تجعلني أدمِنُ التفكيرَ في تلك
الإنسانة العتية اللعوب !

ما لهذه القبلة التي أذاقتني إياها منذ أشهرٍ خلتَ تعاودني
ذكراها ، فتشيرُ بين جوانحي رغبةً عارمةً جارمةً ؟

ما لهذه الإنسانة لا يتمثلُ لي طيفها إلا جسدًا غصًا بضا ، تتموج
عليه شُفوف حريرية ناعمة زاهية ؟

أنا من هذه الذكريات والأخِيَاة في عذاب موصول ، فلا أجدُ
أمامي إلا رأسَ أخى أصبُ عليه سَوْطَ النقمة والسُّخْط .

وساعةً وأنا في المدرسة يزدحمُ خاطري بتلك المشاهدِ والتصوُّرات ،
أخذتُ بيد « الزغبى » أشدُّ عليها قائلًا :

كيف حالكَ مع « الحاجَّةِ فاطمة » ؟

فَبُهِتَ « الزغبى » وحدَّقَ فيَّ ، فقلتُ له :

لقد حدَّثتني عما تلقاه في بيتها من مُتَمِّع . ألم تعاودَ زيارةَ البيت ؟

فانبسطت أساريه ، وتبسم ضاحكاً يقول :

وهل أستطيع عنه سُلوًا ؟

ومال على أذني هامساً يقول : إذا شئتَ ذهبنا العشيّةَ معا .

فضغطتُ يده ، وقلتُ : موافق .

وأقبلَ « خيري » في هذه اللحظة ، فقال له « الزغبي » :

.. ستكونُ معنا . . . استعدّ لقضاء سهرة ممتعة .

فسأله « خيري » : أينَ ؟

فأجاب « الزغبي » : عندَ « الحاجة فاطمة » . . .

فأجفلَ « خيري » وهو يقرضُ أظفاره ، ويقول :

أبي . . . أبي ، لو علمَ لكنت الطامّة الكبرى .

فقلتُ « للزغبي » : لِنَتْرُكْ « خيري » حرّاً في تصرفه . . .

فقال « الزغبي » : أفنتركه طفلاً حتى يشيبَ ؟

ثم التفتَ إلى « خيري » وصاح به : قولْ فصل ، ستكونُ معنا . . .

لا تخشَ شيئاً من أبيك ، لن تجده هناك !

ولما جنَّ الليل ، احتوتنا حانةٌ وضيعةٌ في حيِّ « باب الشعريّة »

فطلب لنا « الزغبي » شراباً أسوداً لذعاً كريه المذاق ، ما كدتُ

أصيبُ منه جرعةً ، حتى اندلعتُ النار في أحشائي ، فأدرك « الزغبي »

ما بي ، فَكَزَّيْنِي وهو يقول :

تَشَجَّعْ ، وكن بطلاً ، وافعلْ مثلَ ما أفعل .

وتناول كأسه ، فصبَّ منها في فمه جُرْعَةً وافية ، ثم انطلق ضاحكاً يَزْهُو ، فتناولتُ كأسِي ، وصنعتُ كما صنع ، وكنتُ أحسُّ بادئِ بدءٍ شيئاً من التَّهَيُّبِ والترُّدِّ ، فأنا حيالَ مغامرةٍ مجبولةٍ لا أدري لها عُقبِي ، ولكني ما لبثتُ أن تطايرَ عني شعورُ الخوفِ والإحجام ، وجعلتُ تسرى في أوصالي ساريةٌ من الجرأة والطلاقة والاندفاع .

أما « خيري » فقد أمسك عن الشراب ، وَحَرُنَ لا تَلِينُ له قناةً ، وكان وجهه كاسفاً ، وجبينه يتفصَّدُ عرقاً ، فَهَزَّنا به ، وتركناه يقرضُ أظفاره ، وهو في حالة زَرِيَّةٍ من التخاذلِ والإرتباك .

وفصلنا عن الحانة ، فقادنا « الزغبي » يخرقُ بنا مَلَاوِيَ الدروبِ والحارات ، وهو آخذٌ بيدِ « خيري » يجرُّه جراً .

وفي أثناء مسيرنا كان « الزغبي » يُطْنِبُ في الحديثِ عن « الحاجة فاطمة » ويتفنن في وصف دارها ذاتِ الأسرار . وما زال يحدِّثنا حتى بلغ بنا بيتاً عتيقاً بابه ضخمٌ فسِيحُ الجوانبِ ، فوقف « الزغبي » عنده ، وأوماً إلينا أن نلتزم الصمت ، وتقدم يدُ البابِ

على نحو خاص ، فانفتح طاق بدا فيه وَجْهٌ لم نتبين منه إلا صوتاً أجشاً
يقول : مَنْ الطارق ؟

فأجاب « الزغبي » خافت الصوت : أنا « الزغبي » .

فلبثَ الوجهُ لحظات ، كأنما تثبتت ويستوثق ، ثم توارى
عن الطاق .

وسمِعنا صريرَ الباب وهو يتزحزح لِيُفْسِحَ لنا فُرْجَةً صغيرةً ننفذُ
منها في محاذرةٍ واحتراس ، وإذا بنا في فناءٍ تموجُ فيه الظلمات ،
وأمامنا ذُبالةٌ شمعةٌ يحملها شبحٌ يتقدمنا ، ونحن في أثره نخطو
صامتين ...

وجعلنا نتخبَّط في دهاليز ، ونتنقل على درج ، ومال « خيري »

على أذني يهيمسُ : ألا تخشى أن يقتلونا ؟

فأجبتُه مؤكداً : لستُ أخشى شيئاً !

وتهدأتُ إلى أسماعنا أنغامُ غناء ، ونقرات طبل ، وكلما أمعنا في

السير ، تجلَّت الأنغام وتعالَت النَّقْرَات . وما لبثنا أن وضحتُ لنا ضجة

رنتُ فيها ضحكات نساء ، فأحسستُ نشوةً تمتلكني .

وبغنةً فطنتُ إلى أن ذُبالةَ الشمعة قد اختفت ، وما هي إلا أن

استقبلتنا قاعة رَحْبَة شَحَّ فيها الضوء ، فأضنى عليها غلالةً من الغموض
والخفاء .

وأخذت عيني جمعاً من النساء في ثياب كاشفة ، وأوضاع متبدلة ،
يُحِيط بهنَّ رجال يتطوَّحون ويترَّحون ، وهم يعايشون النساء في عريضة
وصحَب ، ومن حولهم يدوي قرع الطبول ، وشَدْوُ الأُحان .

وحانت مني التفاتة إلى « خيري » فلمحتُه يدير بصره يَمَنَةً وَيَسْرَةً
وعلى فمه ابتسامة بلهاء ، وانحنى « الزغبى » علينا يقول :

تعاليا أعرِّفكما « بالحاجة فاطمة » .

ومضى بنا إلى ركن في القاعة ، تبينتُ فيه امرأة بادنة ، تقدمتُ
بها السن ، مُتَلَفِّعة بِخِمار ناصع البياض ، وهي تجلس جلسة رزينة
محتشمة ، على أريكة وَثيرة الحشايا ، وبين يديها « نارجيلة » تجتذبُ
أنفاسها في هَيْبَةٍ ورفق ، ومن مِعْصَمِها تتدلى سُبْحَة طويلة ذات
حبَّاتٍ غِلاظ .

ووجدتني أتداني من مجلسها أحييها في أدب ، فسحتُ على
رأسي تقول : ماشاء . . . ماشاء الله . . .

ثم ما عثمتُ أن صاحتُ بالخدام مجلجلة الصوت :
انظرُ يا ولد ما ذا يطلبُ ضيوفنا « البكوات » . . .

وأخذنا مجالسنا عن كُتُبِ منها ، فتصدَّى « الزغبى » للخادم
يتخير لنا ما نشرب ، وأقبلت علينا « الحاجة فاطمة » تتحدث إلينا
فى مختلف الشئون ، حتى إنها خصت حياتنا المدرسية ببعض الحديث ،
ولم تنس أن تزودنا بالنصائح والوصايا ، تحمُّنا على الاجتهاد فى
التحصيل .

وعجّل الخادم إلينا بما طلب « الزغبى » من الشراب ، ولم يكن
بينه وبين شراب الحانة كبير اختلاف ، فكَّرَعَ « الزغبى » من
كأسه ، وحدوتُ حدوة . وكانت « الحاجة فاطمة » تلحظنا بعينٍ
يقظى ، فأنثت على « خبرى » تسأله : لماذا لم تشرب يا بنى ؟
فطفق يفرُّكُ يديه ، وهو يغمغم ويتضحك ، فأخذت كأسه ،
وقرَّبته من يده ، فأثله : إنه شراب مفيد للصحة .

فتناول الكأس منها ، وما لبث أن رفعها إلى فمه .
وتابعت « الحاجة فاطمة » حديثها إلينا ، بيد أنها خلقت بالحديث
فى آفاق جديدة متطرفة ، فراحت تقصُّ علينا أشتاتاً من الأضاحيك
والفكاهات والنكات . وهى فى الفينة بعد الفينة تميلُ على طرفِ
أريكتها فتدلى يدها إلى زجاجة تحت الأريكة تملأ منها كأساً ، وسرعان
ما ترفع الكأس إلى فمها فى مسطرة واستخفاء .

وَنَدَّتْ مِنْ « خَيْرِي » ضِحْكَه رَنَانَةً ، فَانْتَفَتْ إِلَيْهِ ، فَوْقَ
بَصْرِي عَلَى كَأْسِهِ فَارْغَةً ، وَإِذَا هُوَ يَشْرَبُ إِلَى الْخَادِمِ ، طَالِبًا إِلَيْهِ
كَأْسًا ثَانِيَةً !

وَقَدِمَ عَلَى « الْحَاجَّةِ فَاطِمَةَ » ثَلَاثَةَ شُبَّانٍ يَتَخَطَّرُونَ فِي أُنَاقَةٍ
وَزَهْوٍ ، فَاسْتَقْبَلْتَهُمْ تَحِييَةً أَحْسَنَ تَحِيَّةٍ ، وَتَرَحَّبَ بِمَقْدَمِهِمْ أَجْمَلَ
تَرَحُّيبٍ . فَرَأَيْتُ « الزَّغْبِيَّ » يُهَيِّبُ بِنَا أَنْ نَنْهَضَ ، وَفِيمَا نَحْنُ نَتَّبِعُهُ
مَدِيرِينَ عَنِ مَجْلِسِ « الْحَاجَّةِ فَاطِمَةَ » سَمِعْتُهَا تَصِيحُ بِالْخَادِمِ مَجْلِجَةً
الصَّوْتِ : انظُرْ يَا وَلَدَ مَاذَا يَطْلُبُ ضَيْوْفُنَا « الْبِكْوَاتِ » ؟

وَسَرَعَانَ مَا انْتَضَمْتَنَا حَلَقَةً مِنْ نِسَاءٍ وَرِجَالٍ ، فَبَرَزَتْ لَنَا مِنَ الْجَمْعِ
ثَلَاثُ نِسْوَةٍ تَقَاسَمْتَنَا بَيْنَهُنَّ ، فَانْبَرَيْتُ أُعَبُّ مِنْ الشَّرَابِ عَبًّا ، وَأَلْفَيْتُنِي
بِجَمُوحِ الْحَرَكَةِ ، طَلَّقَ اللِّسَانَ ، أَشْعَرُ بِنَزْعَةِ الْمَغَامِرَةِ ثَوْرُ ثَائِرَتِهَا فِي دَمِي
لَا خَشْيَةَ ثَمَّةَ وَلَا اسْتِنْكَافَ .

وَتَوَارَدَتْ الْمَشَاهِدُ لَا أُضْبِطُ مَعَهَا وَعْيِي ، وَلَا أَمْلِكُ زِمَامَ إِرَادَتِي ،
فَكَأَنَّمَا قَدْ طَوَانِي تَيَّارُ عَاصِفٍ مِنْ أَصْوَاتٍ وَحَرَكَاتٍ .

وَلَسْتُ أَنْسَى أَنِّي لَمَحْتُ « خَيْرِي » عَلَى رَأْسِهِ طُرْطُورٌ ، وَقَدْ لَفَّ
خَاصِرَتَهُ بِبِنِطَاقٍ حَرِيرِيٍّ ، وَشَرَعَ يَرْقُصُ ، عَلَى حِينِ أَخْدَقَ بِهِ الْجَمْعُ
يَغْنُونُ وَيَصْفَقُونَ .

وكنتُ أحياناً يدُهمني فتور ، فتغمرني غاشيةٌ من الظلمة والسمت
أخذُ فيها إلى غيبوبة ، ثم إذا أنا قد استيقظتُ فجأةً على هَيْجَةٍ من
تصايح وغناء وإيقاع ، فلا ألبثُ أن أخوضَ مع الجمعِ غمارَ العريضة
والضوضاء .

ومن عجيبِ أمرى أنى كنتُ كلما تطلعتُ إلى وجه الغانية التي
تجاورني ، رأيتني أتمثلُ وجهَ « تهناني » بساماً يُغريني به ، فأجدني
قد انبهتُ عليها أوسعُها ضمناً وتقبيلاً .

وتوالت الضجة ، واشتدَّ على رأسي وَقْعُهَا ، فلم أعدُ أستطيع تمييزَ
شيء مما يجري حولى . وانتبهتُ إلى أنى أترجِّحُ فى مركبة تُكركرُ ،
وخيلَ إلى أنى سمعتُ « الزغبي » يهزُّنى قائلاً :
أضحُ يا « سامى » . . . دنوتَ من البيتِ .

وأحسستُ بعد قليلٍ بذراعين تحمالاننى ، فتصعدان بي فى الدَّرَجِ ،
وكأنى أسمعُ صوتَ « مدبولى » يقول : هل أنتَ أحسنُ حالاً ؟
وقضيتها ليلةً ثقلتُ على وطأتها ، وفزعتنى أحلامها ، إذ كان
يتراءى لى أنى أشتبكُ فى معركةٍ حاميةٍ بين أخى تارةً وشيخِ
الخفر تارةً أخرى !

١٧

لذَّ لي هذا اللونُ من حياة العبث والهوى ، ولم أعدُّ أكتفى
بِالاختلافِ إلى منزل « الحاجة فاطمة » وحده ، فقد عرفتُ الطريقَ
إلى أشباهِ له ونظائر ، حتى أصبح لي في ذلك الميدان مكان مرموق ،
وكأني آليتُ على نفسي ألا أعودَ إلى البيت ليلاً غيرَ مخمور .

وازداد تخافى عن المدرسة ، حتى أصبحت أيام حضوري تُعدِلُ
أيامَ مغيبي أو تقلُّ عنها عددا .

واقترضتني هذه المعابثُ مزيداً من النفقات ، فكنتُ أفزعُ إلى
زوج أخى ، وهى فى حجرتها التى لم تكن ترِيمُها إلا فى النَّدرة ، وكانما
أزمتُ نفسها أن تكون فيها سجيناً بلا سجان . وأظللُّ أتلفُ بها فى
طلب المال ، وأتحوّلُ كلَّ حيلة للحصول منها على ما أطلب ، متفنناً فى
التعليل والتسويغ ، ولا أزال كذلك حتى أظفرَ بِبُغْيَتِي مرةً بعد مرة .

على أن زوج أخى كانت سخيةً علىَّ ما وسعها أن تسخو ، تأبى
أن تردنى خائبَ الأمل ، ولكنها كثيراً ما استبقتُ يدي بين يديها
تهزّها فى حُنوٍ ، وهى تحدقُ فى عيني قائلةً لى : كن عاقلاً يا بُنَى فى
تصرفاتك ، وحاذِرْ أن تُغوِيَك نزغات السوء .

وكان يطيّب لي أن أطيلَ جلوسى إليها ، أحاولُ أن أفاكها وأن
أسرّي عنها ، ولكنّ الكآبة التي رانت على هذه الحجرة كانت
تريدنا أحياناً على صمت مُطْبِقٍ ، فألبثُ قبالةَ زوج أخى أرنو إليها
كاسفَ البال ، وهى قابعة فى ركود واستسلام ، على عينيها نظارتها
الزرقاء تزيد مُحَيَّاهَا من شحوب . وأجدنى أهمهم :

حتى متى تظلين فى هذا العذاب ؟

— هذا أمر الله يا بُنَى !

فأشدُّ على يدها أقول :

لماذا لا تخرجين للنزهة والترفيه عن النفس .

فتربّت كتنفى متهددةً تجيب :

أنت طيبُ القلب يا « سامى » ، أعلم أنك تحبّ الخير لى ...

انهض يا بنى ، فتمتع بشبابك ، فالدنيا لأمثالك !

أما أخى فقد أصبح يزور الدار زيارة الضيف ، ويلوح فيها كما

تلوح سحابة الصيف ... وكنتُ أتكّبُ عن مرآه ، ولكننا كنا

نتلاقى اتفاقاً ، فلا يزيد ما بيننا على أن أحييه على كرهه ، فيعقد لى

جبينه ، ويمطُّ شفثيه ، وهو يردّ تحيتى مغمغماً لا يُبين .

ولطالما كان يُغْلُو بي فضولى ، أريد أن أعرف أين تسكن
« تهانى » ؟ وكيف تعيش ؟ وعلى أى نحوٍ تعاشر أخى ؟ فأكشف
« أم خضير » بِمَرَادِ نَفْسِي ، فَتَنَهَيْتَنِي إِلَى أَطْرَافٍ مِنَ الْأَخْبَارِ وَالْأَحْدَاثِ ،
تَهَيِّجُ بِهَا رَغْبَتِي فِي طَلْبِ الْمَزِيدِ .

وحان يوم كنتُ فيه أعتلى مركبتى ، فبرقتُ فى خاطرى فكرة
هيمنتُ علىَّ ، فهِمستُ فى أذن « مدبولى » بكلمات ، فنظر إلى مدهوشاً
يهزُّ رأسه هَزَّةَ الْإِمْتِنَاعِ ، وَلَكِنِّي أَلْحَتُ وَأَصْرَرْتُ ، فوَجَّهَ قِيَادَ
المركبة وَجْهَةً أُخْرَى ، وَمَضَى بِي إِلَى حَيْثُ أُرِيدُ .

وجازت المركبة بدار فَيَاحَةَ تُحِيطُ بِهَا حَدِيقَةٌ رَشِيقَةٌ ، فَالْتَفَتَ
« مدبولى » إِلَى غَامِزاً بَعَيْنِهِ ، مُؤَمِّئاً إِلَى الدَّارِ ، ثُمَّ لَسَعَ ظَهَرَ الْحِصَانِ
بِسُوطِهِ ، فَانْطَلَقَتْ عَجَلَاتُ المَرْكَبَةِ تَطْوِي الطَّرِيقَ .

وملكتنى نشوةٌ حينَ ظَلِمْتُ أَتَّبِعُ الدَّارَ بِنَظَرَاتٍ مَنبُومَةٍ ،
والمركبةُ تَنَائَى بِي عَنْهَا فِي غَيْرِ مَهَلٍ .

وَبَغْتَةً أَمْسَكْتُ بِيَدِ « مَدْبُولِي » أَقُولُ لَهُ : قِفْ !

— لماذا ؟

فَشَدَدْتُ عِنَانَ الْحِصَانِ مِنْ يَدِهِ ، وَوَقَفْتُ المَرْكَبَةَ وَأَنَا أَقُولُ :
سَتَنْتَظِرُنِي قَلِيلًا .

ونزلتُ عن المركبة وثباً ، وتوخيتُ الدار ، وأنا أتلقتُ محاذيراً أن يرانى أحدٌ ممن أعرف ، وما إن قاربتُ البابَ حتى لحتُ مركبةً فحمةً مُقَفَّلةً تبارحُ الدار ، فانزويتُ أرقبُ ، وجازتُ المركبةُ غيرَ بعيدٍ منى ، فإذا فيها أخى و «تهانى» تتألقُ على وجهيهما البهجةُ والمرحُ ، فاضطربتُ نفسى ، ورجعتُ إلى مكانِ مركبتى ، تتقاسمُني مشاعرٌ متناقضة . وما كان أشدَّ دهشتى إذ رأيتُ المسكانَ خالياً من المركبة ، فجعلتُ أدورَ يميناً ويسرةً فى تعجبٍ وحيرة ، وبعدَ لآئى رأيتُ «مدبولى» مترجلاً يبحث عنى ، فصحتُ به : أين المركبة ؟

— خبأتها فى زقاقٍ هنالك . كدتُ توقعُنى فى بليَّةٍ وشرٍّ ، فقد لحتُ مركبةً أخيك قادمةً ، فسارعتُ إلى الاختباء .

ووافيتُ البيتَ ، لا يبرحُ رأسى مشهدَ «تهانى» فى صُحبةِ أخى وقضيتُ فى الحديقةِ ساعةً تراوِدُنى فكرةٌ معيَّنة ، وأنا أرسُمُ لتحقيقها خطةً محكمةً ، وزُهيتُ نفسى بما أحسسته من جرأتى ومضاء عزمى .

وفى صبيحةِ غدَى ، كانت تلكَ الفكرةُ المعينة قد اختمرتُ فى رأسى ، ولم يعدْلى مَصْرِفٌ عن إنفاذها فى غيرِ وئاء . فخرجتُ من الدارِ مشغولَ البالِ بما أنا فيه ، ألتمسُ فى التَّجْوالِ فرُجَّةً وتسريةً . وشدَّما أدهشنى أن أطلعَ وجهاً طالَ مَغيبُهُ عنى سِنينَ ، ذلكَ هو وَجْهُ القَزَمِ

المشوّه ، صبيّ البستاني القديم . . . إنه « العيوطي » الذي طَرَدَه أخى
شرّاً طَرْدَةً !

اقترَب منى هابطاً على يدي يقبّلها ، وهو يقول فى مَسْكَنَة :
الحمدُ لله على أنك بخير يا سيدى . جئتُ أراك يا سيدى !
فَعَجِبْتُ لذلك الذى عَهَدْتُهُ متمرّداً شَقُوباً ، كيف صار اليوم
متخاضِعاً ذَلِيلًا ؟ فقلت له :

كيف أنت يا « عيوطي » ؟ أين كنتَ هذه السنوات ؟
— كنتُ فى الصعيدُ أعمل .

وجعلتُ أتفرّسُ فيه ، فخيّلَ إلىّ أنه قد تقاصرَ عن ذى قبل ،
وأن أحاديدهَ وجهه قد مَشَى بعضُها فى بعض ، وأن جبهتهَ بها ندُوب
غائرة ، وأن فمه قد تحطمتُ فيه الثنايا .

فقلتُ له فى إشفاق : وماذا تعملُ الآن ؟

فتطلع إلىّ يَفْرُكُ يديه ، ويبتسم قائلاً : أبحثُ عن عمل .
وأخذتُ أخطو فى الطريق ، وهو بجانبى يتحدثُ إلىّ حديثَ
هِجْرته إلى الصعيد ومُقامِهِ فيه ، وتنقله بين النُجُوع والأصقاع ، مشاركاً
فى شقِّ الترع ، وتمهيد الجسور ، يزاوُل ألواناً من المغامرات ، ويزدوقُ
من العيش طَعْمِيَه الحلوى والمرّ .

وكنْتُ في أثناء حديثه لا أُلقِي له سَمْعِي كلَّ الإلتقاء ، فقد حَلَقَتْ
بني الخواطرُ في آفاقٍ أُخرى ، كثيراً ما كانتُ تتراءى فيها « تهاني »
مع أخي تحويهما المركبةُ الفخمة .

ووجدتني أدلي بنظري إلى « العيوطى » وقد لمحَ في رأسي خاطر
جريء ، فقلت له :

أَلْقَنِي غداً . . . أنا في حاجةٍ إلى من أثقُ به ، لِيُنْجِزَ لى أمراً .
وما أسرعَ أن دَسَسْتُ في يده مَنحة طيبة من النقود ، فجعل يقول :

لا حَرَمَنِي اللهُ خَيْرَك . . . أنا طَوْعُ أَمْرِك !

ولما لَقِيتُ « العيوطى » في غدٍ خلوتُ به أرسُمُ له مهمته ، وأفهمتهُ
كيف ينجزها على خيرِ وجه ، ورجبتُ إليه في أن يأتى إلى كلِّ
مساء بما عنده من الأخبار .

ومضتْ أيامُ كنتُ أرتقبُ فيها كلَّ ليلةٍ مَقْدَمَ « العيوطى » علىَّ ،
فأنتحى به ناحيةً أسأل وأستفسر ، متقصياً في السؤال والإستفسار ، وهو
ينفضُّ لى ما وراءه في حماسة ويقظة واهتمام .

وحلَّ يومٌ بلغتُ فيه مهمةُ « العيوطى » منتهاها ، فقد أنهى إلى
أن « تهاني » ترحَّب بِمَقْدَمِي عليها ، وأنها في ارتقابِ فرصةٍ تتحيينها
لألقاها في دارها خُلُسةً وراءَ الأنظار . . .

وفي وقتِ الظهيرة من غدى ، رجعتُ إلى داري ، فإذا أنا أجد

« العيوطي » بالبواب ينتظر ، مهتاج النفس ، متهلل الوجه .

فبادرتُ أسأله : ما وراءك ؟ ماذا أسرع بك ؟

فأمسكَ بيدي ، ومضى بي صامتاً خطوات ، وجعل يشربُ إلى

وهو يهيمس قائلًا : إنها في انتظارِ قدومك عليها عصرَ اليوم . . .

فوقفتُ مأخوذاً لا أملكُ سكينَةَ نفسى إزاء هذه المفاجأة .

وما عتَمْتُ أن قلتُ : كيف السبيلُ إلى دخولِ المنزلِ ؟

فابتسم ابتسامةَ دهاءٍ وتخابُثٍ ، وقال :

هذا شأني . . . كُنْ مطمئناً .

وأضيتُ الوقتَ دائبَ الحركة ، موصولَ السعى ، لا أنجزُ عملاً ،

ولا أعرفُ لى من قرار . وطالما وقفتُ أمامِ صِوَانِ الثيابِ ، أوازنُ بين

الحلَلِ جديدها وقديمها ، أيُّها ألبس ؟ وأيُّها ألبس ؟ وطالما بعثتُ أربطة

الرقبة أحدقُ فيها لا أدري ماذا أتخيرُ منها ؟ حتى دقتُ ساعةَ الحائطِ

تؤذِنُنِي بأن الموعدَ قد أُرِفَ ، فَرَدَدْتُ بابِ الصَّوَانِ أَغْلِقُهُ ، وقد استقرَّ

رأى على ألا أضيعَ وقتي في استبدالِ ملابس بملبس . ووجدتُني أمثلُ

أمامَ المرآةِ عجلانَ أُصلِحُ من هِنْدَامِي ، وأطرِّي شعري . ثم ما هي

إلا أن عَدَوْتُ أَقْفِزُ عَلَى الدَّرَجِ ، حتى بلغتُ بابَ الدارِ ، فَعَثَرْتُ
« بالعيوطى » كما نَأْيَرُ صُدُّ نَزْوَى .

وسرنا معاً فى خُطَا خِفَافٍ ، حتى صادفتُنا مَرَكِبَةُ أُجْرَةٍ ، فاستوقفتُها
« العيوطى » وطلبَ إلى السائقِ أن يَقْصِدَ بنا جِهَةً أَجْهَلُها ، فسألتُ
« العيوطى » فى ذلك ، فأجابنى :

لا نستطيعُ الذهابَ إلى بيتِ « تَهانى » تَوًّا... علينا أن نَمُهِدَ للأمرِ !
وصعدنا فى المَرَكِبَةِ ، فمضتُ بنا تُكْرِكِرُ ، و « العيوطى » يشرح
لى ما دَبَّرَ من خُطَّةٍ ، ثم جعل يَدُلُّ السائقَ على الطريقِ .

ونزلنا عن المَرَكِبَةِ أمامَ دارِ زَرِيَّةٍ مُسْتَهْدِمَةٍ ، فسبقنى « العيوطى »
داخلاً فيها ، وأنا على أُرْهٍ ، حتى أَفْضَى بى إلى حِجْرَةٍ مُعْتَمَةٍ تهبُّ
منها رائحةُ كَرِيهَةٍ ، وتركنى هُنَيْهَةٍ ، ثم عاد إلىَّ يَحْمِلُ صُرَّةَ فِضْها بين
يَدَيْ ، وأخرج منها ثوباً نِسْوِيًّا و بُرُقْعاً ومِلاءً سوداءً ، وهو يقولُ :
الْبَسْ عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ !

فألقيتُ على الملابسِ نظرةَ استغرابٍ ، وعجبتُ كيف يريدنى
« العيوطى » على أن أتزيّاً بهذا الزيِّّ ؟ وانفجرتُ ضاحكاً على حينِ
بَغْتَةٍ ، حتى دَمَعَتْ عَيْنَاى ، فهزّنى « العيوطى » قائلاً :

حانَ الموعدُ... هَيَّا... لا نُضِعِ الوَقْتَ !

وشرعتُ أستبدل بملبسي هذا الزيَّ النسوي ، يعينني « العيوطى »
على إحكام ارتدائه والظهور به .

وانتابتني نشوة السادر الطليق ، فجعلتُ أقهقه في غير مبالاة ،
وخرجتُ مع « العيوطى » في لبوس التنكر ، فأقلتُنا مركبةً أُجرةً
تنهبُ بنا الطريق إلى دار « تهبانى » ، فلما كانتُ منها عن كُتب ،
نزلنا عن المركبة نترجّل ، ووقف « العيوطى » يقول :

تشجعْ ، واضبطْ نفسك ، وادخلْ على بركة الله ! . . . ادخلْ
وحدك من الباب الخلفي . . . إنها في انتظارك هناك .

ونحوتُ نحوَ الباب ، فما إن دخلتُ حتى وجدتني في ردهة
صغيرة ، فقطعتها وقلبي دائبٌ خفوقه إلى بابٍ على اليمين ، ونفدتُ
منه محاذراً سريعَ التلفت إلى دهليزٍ استقبلتني فيه هبةٌ من عطر ليس
عنى بغريب . . . فسرتُ في أوصالى انتعاشة ، وانبعثتُ في مشاعري
يقظةً ، ورأيتني أخطو نشوان .

وبغتهً برزتُ لى « تهبانى » ، فوجدتني أخفّ إليها ، وألفيتها
تأخذ بيدي ، وهى تحدقُ فيّ ، وتكبتُ في فيها ضحكات .

وراعنى منها أول ما راعنى عيناها الجياشتان بأحاسيس فوّارة
عارمة ، فلم أعد أقوى على أن أطيلَ فيهما النظر .

وسرنا معاً ، فقالت لى فى همس :

شكرتُ لك تفكيرك فى ... جميلٌ منك أن تتكبدَ هذه المشقاتِ
فى سبيلِ لقائى . . . إن المغامرات تستهوينى كلَّ استهواء .

فضغطتُ يدها وأنا أهمهم : فى سبيلك كل صعب يهون !

وشعرتُ فى هذه اللحظة بأنى أكاد أختنق تحت وطأة ذلك البرقع
المشدود على وجهى ، فهيمتُ بأن أفكَّ وثقَّه عنى ، فعاجلتُنى
« تهانى » تمنعنى ، وهى تقول : دعه قليلاً .

واجتزنا الممرَّ ، فأسامنا إلى حديقة محدودة خلفَ الدارِ خاصَّةٍ
بالحریم ، فى طرفها منظرَةٌ خشبيَّة رشيقة ، فلما دخلناها أغلقتُ
« تهانى » بابها إغلاقاً محكمًا ، وهى تقول لى :

هنا يسعُك أن ترفعَ برقعك ، وأن تخلعَ ملاءتك أيضاً !
فما أسرعَ أن فعلتُ .

وكانت المنظرَةُ ذاتَ أثاثٍ طيبٍ يعمرُّ بوسائلِ الراحة والرفاهة ،
فجلستُ على متكأٍ وثيرِ الحشايا ، وأنا أمسحُ وجهى ، وأسوِّى شعرى ،
فوقفتُ « تهانى » ترنُو إلى ، ثم قالت :

لا أستطيع أن أجالسك وأنت فى زىِّ امرأة . . .

ثم جذبتُ من تحت إحدى الوسائد منامةً هفهافةً ناولتُنى إياها ،

فَقَمْتُ إِلَى رُكْنٍ أَخْلَعُ ثَوْبِي النَّسْوَى ، وَأَلْبَسُ الْمَنَامَةَ ، عَلَى حِينِ
أَخَذْتُ « تَهَانِي » تَنْظُرُ فِي مِرْآةٍ لَهَا ، تَسْتَكْمَلُ زِينَتَهَا ، فَلَمَّا فَرِغْتُ
مِنْ أَمْرِي طَابَ لِي أَنْ أَفَاجِئَهَا ، فَأَخْتَلِسَ مِنْهَا قُبَاةً فِي عُنُقِهَا ، فَغَطَّنْتُ
إِلَى مَا أُرِيدُ ، وَتَنَحَّتُ بِوَجْهِهَا عَنِّي ، وَهِيَ تَقُولُ فِي مِلَاطِفَةٍ :

مَاذَا كُنْتَ تَبْغِي أَنْ تَفْعَلِ ؟ أَعَزَبَ عَنْكَ أَنْي زَوْجُ أَخِيكَ ؟
وَنظَرْتُ إِلَى تَتَبِينُ أَثَرَ قَوْلِهَا فِي نَفْسِي ، ثُمَّ اسْتَأْنَفْتُ تَقُولُ :
أَجْلِسْ قِبَالِي نَتَحَدَّثُ .

فَجَلَسْتُ حَيْثُ أَشَارَتْ ، وَرَأَيْتُهَا تَنْدِي مِندِيلِهَا بِالْعِطْرِ ، وَتَدْلِكُ
بِهِ وَجْهِي فِي دُعَابَةِ وَرَقَةٍ .

وَكَانَتْ بَيْنَنَا لِحَظَاتٌ صَمَتْ ، عَبَثْتُ فِيهَا « تَهَانِي » بِقِلَادَةٍ
تَتَدَلَّى عَلَى صَدْرِهَا ، وَهِيَ تَرُقُّبِنِي ، وَعَلَى ثَعْرِهَا ابْتِسَامَةٌ خَفِيْفَةٌ .

ثُمَّ قَالَتْ : لَا أَحْسَبُ « مُودَّةَ هَانِمِ » إِلَّا حَاقِدَةً عَلَيَّ !
وَنَهَضْتُ تَخْطُو فِي خُبَيْلَاءٍ ، فَغَطَّنْتُ شَفَتِي وَأَنَا أُجِيبُهَا :

لَمْ يَكُنْ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ !

فَعَادَتْ تَوَاجِحُنِي ، وَمَا زَالَتْ الْقِلَادَةُ بَيْنَ أَنْوَامِهَا تَعْبَثُ بِهَا ،

وَتَقُولُ : إِنَّهَا تَمُوتُ كَمَدًّا . . .

وَتَعَالَتْ مِنْ فَمِهَا ضِحْكَةٌ مَجْلِجَةٌ هَازِنَةٌ ، وَقَصَدَتْ إِلَى مِئْزَدَةٍ

صغيرة ، فتناولت منها مِرْوَحَةً جعلت تبسطها وتطويها ، وتنتظر
بأنها تنفحصها في دقة ، فشعرت بأني أضيق بما تقول ، ولكنني كضمت
شعوري ، وأجبتها غير مكترث : واقع الأمر أن « مودّة هانم » تواصل
حياتها المألوفة ، كما هي حالها من قبل .

فاقتربت مني ترميني بنظرة باهرة ، ومالت علي كتنفي تداعبني
بمِرْوَحَتِهَا ، وقالت : لا تتكلف إخفاء الحقيقة ، فقد شاع أمرها
وذاع . . . أنت لا تحسن الدفاع عنها يا صاح !

وفاجأتني تأنيم خدي بِمِرْوَحَتِهَا لطفة خفيفة ، وهي تسترسل في
تضاحكٍ اعزازٍ واستعلاء .

واستدارت ماضيةً عني ، فانتفضت أوصالي من حميةٍ وغيظ ،
وسألت نفسي : أكان قدومي إلى هذا المنزل لأسمع تلك القوارص ؟
وألفيتني أنهض خلفها وأنا أقول : مالك ولهذا الكلام ؟

فعدلت بوجهها إليّ تجيب في تهكم :
معذرةً يا « سامي » . . . لم يكن في علمي أنك حسّاس العواطف
نحو « مودّة هانم » إلى هذا الحد ! . . .

— إنها زوجٌ أخى .

— زوجٌ أخيك . . . لولا إشفاق على هذه العجوز لما تركتُ

أخاك يُبقي عليها إلى اليوم . . . في مُكْنَتِي أن أجعله يخلعها من
عِصْمَتِهِ في أيّ وقت أريد !

فصحتُ بها ، وقد تضرّج وجهي غضباً :

حسبك يا « تهناني » ... الزمي حدك !

فاعتدلتُ قبّالتي تضع يديها على كتفي ، ونظرتُ إلى ، ثم قالت

ساخرة : لم هذه الحِدَّة ؟ رَوْقُ دَمَك !

ولطمتُ خدي بِمِرْوَحَتِهَا لَطْمَةً أَشَدَّ من الأولى ، وهي تقول :

حقاً إنك لقليلُ الذوق في مخاطبتي . . . أنا زوجُ أخيك ، ولي

عليك حقوق !

فوقفتُ حيالها حيران ، يخونني منطقي ، ولا يسعني تديري .

وكنتُ أحدثُ نفسي وأنا أحدقُ فيها :

ماذا يجب أن أعملَ إزاء هذه الغانيةِ المتمرّدةِ الشَّعُوبِ ؟

وتواقفنا وقتاً نترشقُ بالنظرات ، وما هي إلا أن رأيتها تهبطُ على

فتأخذُ برأسي بين يديها ، وتُشْبِعُنِي تقبيلاً . . .

تتابعَتُ الأشهرَ تَسْمُ حَيَاتِي بِهَذَا المِيسَمِ الجَدِيدِ ، مِيسَمِ العِلاقَةِ
الأثيمةِ بِنِي وَبَيْنِ « تَهَانِي » ، فَكُنْتُ أُتَحَوَّلُ أَشْتَاتِ الحِيلِ لِمِلاقَاتِهَا
فِي مَنزِلِهَا بِبَنجَوَةٍ مِنْ أَعْيُنِ الرِقَبَاءِ ، وَكَانَ « العِيوطِي » هَمزَةً الوَصْلِ
فِي هَذِهِ الزُّورَاتِ الخَفِيَّةِ ، وَظَلَّتِ المَنْظَرَةَ هِيَ المُلْتَقَى ، ، أَقْضِي فِيهَا مَعَ
« تَهَانِي » سُوَيَعَاتٍ فِي رِعايَةِ الشَّيْطَانِ .

ما أَعْجَبَهُ هَوَى يَرِيطُ بَيْنَ قَلْبِينَا : أَنَا وَ« تَهَانِي » . . . فَمَا كَانَتْ
جَلِساتِنَا مَحْضَ صَفَاءٍ ، وَلا خَالِصَ مَتَعَةٍ وَإِيناسٍ ، بَلْ لَقَدْ كَانَ يَشُوبُهَا
دَوَمًا ضَرُوبٌ مِنَ المِشاحِنَاتِ ، تُثِيرُهَا « تَهَانِي » بِنِي وَبَيْنِهَا ، وَتُضِئُني
فِيهَا بِمَا يَرِنُّ عِطَافِهَا مِنْ كِبَرٍ وَاسْتِطالَةٍ وَتَأَمَّرِ .

وَكَانَ شَغْبُهَا عَلَيَّ يَنْتَهِي أبدأً بِأَنْ تَعَمِدَ إِلى مِرْوَحةِهَا ، فَتَلَطِّمَ بِهَا
وَجْهِي ، حَتَّى لَقَدْ حَانَتْ سَاعَةُ آذَنِي لِطَمَّتِهَا ، فَوَجَدْتُني أَنْزِعَ هَذِهِ
المِرْوَحةَ مِنْ يَدِ « تَهَانِي » وَأَنَا أَقولُ ثائراً :

إِذَا لَمْ تَكْفُني عَنِ هَذَا العَبَثِ فَإِنِّي أَرِيكَ ما تَكْرهينَ .

- لا تَسْتَطِيعُ مَعِيَ شَيْئاً . . .

فَرَأَيْتَنِي أَرِفُ المِرْوَحةَ فِي وَجْهِهَا ، أَوْشِكُ أَنْ أَهْوِيَ بِهَا عَلَيْهِ ،

وإذا أنا أمهالُ على المِرْوَحَةِ تمزيقا ، وأمْرِقُ من المنْظَرَةِ مرُوقَ
القَدِيفَةِ في الفِضَاءِ .

وأقسمتُ غيرَ مرةٍ ألا تطأُ قدمي هذا المنزلَ الكريه ، وألا
أواصلَ هذه الغانيةَ النكراء ، ولكني كنتُ أحنثُ وأحنثُ ،
وأعرضُ لألوانٍ من المغامراتِ والأخطار ، لكي أستأنفَ مع
« تهاني » تلكَ العلاقةَ المحرَّمةَ الغبراء .

ولم أسترحُ من مشاغباتِ المِرْوَحَةِ طويلا ، فاقدتُ كنتُ كلما
مَرَّقْتُهَا لا تلبثُ أن تبرُزَ في يدِ « تهاني » على نحوٍ جديدٍ !

ويوماً ضِقتُ بلطمةِ المِرْوَحَةِ ذَرْعًا ، فما إن مَسَّتْ وجهي ، حتى
انتفضتُ أجتذبها من يدِ « تهاني » ، وهممتُ بأن أمزِّقها شرَّ ممزِّقٍ ،
كما هو دأبي من قبل . ولكني وجدتنِي أمتشقها فأضربُ بها وجهَ
« تهاني » مرةً بعد مرةٍ في غَاظَةٍ وعنْفٍ ، ورأيتُ « تهاني » قد
رِيعتُ مما أصابها ، وعاجلتها بهتةً ، ثم ما لبثتُ أن ولوتُ وهي تحمي
وجهها من سَقَطَاتِ المِرْوَحَةِ ، وإذا هي تهاوى ويستبدُّ بها
نَشِيجٌ . . .

ووقفتُ حِيالها كالمذهول ، لا أدري كيف صنعتُ ما صنعتُ ؟
واستمرتُ « تهاني » تَنشِجُ كأنها طفلٌ يتوجَّعُ ، فشعرتُ بقلبي تُدَاخِلُه

اللَّوْعَةَ ، وسألتُ نفسي : أكانتُ تستحقُّ مني هذه القسوة ؟
ورفعتُ رأسها إليّ ، تُصعّدُ نحوى نظرةً حاميةً ، وهي تقول :
أُغْرِبُ عن وجهي !

ولحتُ على خديها أثر الضربات ظاهراً شديداً الإحمرار ، فما
تمالكْتُ أن أقبلتُ عليها ، آخذاً بكتفها ، وهي تتلوى كشحها عني ،
وتقول : دَعْنِي دَعْنِي !

فتشبثتُ بها ، قائلاً في لهجة استرضاء :
لم أكنُ أقصدُ أن أسوءك . . . أخطأتُ . . . لا عليكِ !
وجذبتُها إلى صدري ، واندفعتُ أنثر قبلاتي على وجهها جُزافاً .
وترادفتُ الأيام ، تتوالى فيها زوراتي لبيت « تبهاني » . . . وكان
أكبر ما استرعى نظري أنه منذ ذلك اليوم الذي قسوتُ فيه عليها
اختفتُ المِروحةُ كلَّ اختفاء ، ولم يعد لها في حياتنا من أثر !
وجدتُ من أمرى أني أحسستُ في علاقتي « تبهاني » نزعة العِزة
والشُّموخ ، وعلى الرغم من أنها قد استكانتُ لذلك الانقلاب الذي
طرأ علىّ ، فقد كانتُ في الحين بعد الحين تعاودها الشراسة والصلف ،
تحاول أن تستردَّ سلطانها المسلوب ، فأراني قد سارعتُ إلى العُنفِ
(٨ - شباب)

بها ، غير متورّع عن ضربها ، حتى تَفِيءَ إلى سكينه وانقياد .
وعلى مرّ الأيام كنتُ أزداد تطاولاً عليها ، مع كلفي بها ،
وانجذابي لفتنتها ، فلا تكاد تبدرُ منها هنات حتى ألتسبها سبباً
لا تنهارها وتأديبها في غير هواة . بل لقد كنتُ أتجنّي عليها ، وأدبرُ
لها من حباثل المُنَا كدات ما يُوقِعُها تحت طائلة العقاب الصارم . فإذا
بلغتُ من ضربها وإيذائها ما رُبِي أحسستُ نشوةً تتسرّب في دمي ،
واعتداداً يملأ أقطارَ نفسي .

وذات يوم ونحن في شُجون من الأحاديثِ ، ألفتيها تفجّوني
دون مناسبة بقولها : ماذا تعرفُ من أمرِ « فتحية » ؟
فصدّمتُ سؤالها نفسي ، ولم أحرز من جواب ، وجعلتُ أحدجُها
متفحّصاً ، فراحتُ تخطو أمامي في خيلاء ، وفي فمها إفاقها تنفث
دخانها في غير مبالاة . وواصلتُ حديثها تقول :
« فتحية » ابنة ضابط المدرسة . . .

وأسبلتُ لي جفنها في خبث ولؤم ، وتعمدتنى بنفثة من دخانها
في قحّة وجراة ، فتهضتُ غضبانَ حميماً أمسك بيدها فأضغطها وأنا
أقول : ماذا تقصدين بقولك هذا ؟
فجذبتُ يدها من يدي ، وهي تقول :

عجبتُ لك ! ... أئِ ضيرِ علىّ في أن أسألك ؟
فرفعتُ يدي أهُمُّ بأنَّ الطِّمَّها ، فرأيتُ وجهها قد ا كفهراً ،
واكتسى سَحْنَةً نَمِرَةً توشك أن تنقضَّ على الفريسة .
وسمعتها تتحدَّأني بقولها : أأنت تبغى أن تضربني من أجل
هذه المخلوقة الحقيرة ؟ ... جرِّبُ ما تريد !

فهجمتُ عليها ، ولكنها كانت هذه المرة خصماً غلاباً لا يلدن
ولا يستكين . ونشِبَ بيننا شجار شديد ، شعرتُ فيه بأظفار « تهباني »
كأنها نصال مسنونة تعيثُ في وجهي فساداً ...

وخرج كلانا من المعركة : شعرةُ منفوش منتزع ، وثيابه مهلهلة ،
وجراحه تدمي . وما هي إلا أن سقطنا جميعاً على أديم الأرض محطمين
لا نملك لأنفاسنا تصعيداً ، وجعل كلُّ منا ينظر إلى صاحبه ، فيرى
فيه صورة مخلوق شريد نبذته الحياة !

ولبثنا نتبادل النظرات في صمت ، وأخذتُ « تهباني » تمسح
جبينها بيدها ، ثم رفعتُ رأسها ، تدور ببصرها يميناً ويسرة ،
فحزرتُ أنها تبحث عن منديلها ، فأخرجتُ منديلي أقربه إليها ، فإذا
هي تدفع يدي عنها ، فتدانيتُ منها على مهل ، وجلستُ بجانبها أمسح
وجهها في رفق ، ثم أمسكتُ بيدها وأنهضتها أجلسها على المتكأ ،

ثم قصدتُ إلى زجاجة العطر ، فعدتُ إليها أنشقتها وأنضحُ وجهها ،
ثم اثبتتُ أصنع بنفسى ما صنعتُ بها ، وأخذتُ مجلسى بجانبها ،
وأرحتُ كتفى على رأسها ، ولبثتُ الأطف شعرها ، فمحتها ترخى
جفنها ، وألفيتنى أقول كأنى أحدثتُ نفسى :

ألا يمكنُ أن تظلَّ علاقتنا فى صفاء ؟ وألا تشوبها تلك الأكدار ؟
وامتدَّ بيننا صمت ، ولاحظتُ أن « تهانى » قد أخذتها سنة
من النوم ، ورأسها يتوسدُ كتفى !

ولما قفلتُ إلى منزلى هذه الأُمسية ، تصفحتُ ما دار فى زورقى
« لتهانى » ، فبرزتُ لى « فتحية » تحتلُّ تفكيرى كله ، وازدحمتُ
ذكرياتها تسدُّ على كل منفذ ، ولاح لى طيفها يتنقل فى حجرتى
مختلف الأوضاع ، فيبعث فى ذاكرتى مشاهدَ حياتها معى فيما سلفَ
من أيامى .

وظللتُ مهمومَ النفس ، مُزعجَ البال بهذه المشاهد والأطيف ،
فلم يهدأ لى خاطر إلا بعد أن بنيتُ عزمى على أن أعملَ شيئاً من أجل
« فتحية » شيئاً حاسماً ينقذها مما تعانیه !

لا بدَّ أن أبدأً ذلك من غدى . . .

وخلوتُ « بالعيوطى » أتقدّم إليه بما أريد ، وطلبتُ منه أن

يسأل عن مقام « فتحية » في الضيعة التي حُملت إليها ، وأن يستقصى أخبارها كل استقصاء . فنهى إلى بعد أيام أن زوجها شيخ الخفر انتقل بها إلى بلدة الأصيل ، وأنه لا علم لأحدٍ بشيء من أخبارها أو أخباره .

فقرَّ عزمي على أن أواصل البحث ، وأتابع التحري والتفتيش ، حتى أبلغ ما ربي من التعرف والتحقيق ، تمهيداً لما أقوم به من عملٍ حاسم في سبيل « فتحية » .
ولكن تواتر الغداة والعشي ، وأنا لا أجدني قد أبرمتُ شيئاً !

وأذكر أني في إحدى زوراتي « تهناني » وهي على صدرى أطوقها بذراعي ، وأعيننا موصولة النظرات ، وجدنتني جياش النفس ، ألهب افتنانا بتلك الإنسنة الخلابة التي أستمتع بها أروع استمتاع .
فأهويتُ عليها أقبّلها وأضمها ، كأني أخشى أن تضيع من يدي ، وسرعان ما همهمتُ أقول : أيقبلك أخي كثيراً ؟

فلاحتُ على ثغرها بَسْمَةً ، وأومأتُ برأسها علامةَ الإيجاب ،
فشدوتُ عليها قائلاً : أنتِ تكذِيبين .

فردتُ عليَّ تقول : وماذا أ كذب ؟ لقد أخبرتكِ بالحقيقة !
فقلتُ لها مَغِيظًا : ماذا عسى أن يكونَ من رجلٍ هدَمَتْهُ السنون ،
والحَّ عليه الضعف ؟

فتعالتُ ضِحْكَتِهَا ، وتابعتُ قولي لها :
إنه يحسن الثأوب والتمطى ، فأما غير ذلك فلا . . .
وأغمضتُ « تهباني » عينيها ، وهي تدني مني ففهما ، فأخذتُ
شفتيها بين شفتيَّ ، وجعلتُ أتفننُ في تقبيها وأنا أقول :
أخى لا يستطيع أن يقبلَّك على هذا النحو . . . لا أسمحُ لكِ أن
يقربَ بكِ أحدٌ سواي . . . لا أسمحُ لكِ بأن يمسَّ فمكِ إلا في !
هَمَّتُ « تهباني » أشدَّ هَيَام ، فلم أعدُ أطيقُ عنها بُعدًا ، وكثيرًا
ما كنتُ أقضى أيامًا في دارها ، حبيسَ تلك المنظرَةِ ، فأقاسمُ أخى
حياته : مَطْعَمَهُ ومَشْرَبَهُ وملبسه ، فضلًا عن أني أقاسمه زوجته ،
وذلك كله دون أن يعلمَ من أمره شيئًا قلَّ أو كثير !

ولا أدري ما سرُّ تلك النشوة التي كانت تهبُّني وأنا في مَحْبِسِي ،

حين كنتُ أحسُّ بأن أخى على مقربة منى ، يدبُّ فى أرجاء
البيت دَيباً . . .

ما كُنْه تلك العاطفة الشاذة التى أخذتُ تنمو نموها بين ضلوعى
نحو أخى ؟

ماذا لا أفتأُ أمعنُ التفكير فيه ، وقلبي ترعاه نارٌ تتلظى ؟

لقد شعرتُ على مرِّ الأيام بأن تلك النزعة الشاذة تتجسّم وتتضخّم ،
وأنها أشبه ما تكون بوحش مفترس يتنزى بين ضلوعى متحفزاً
لإنفكالكِ ووثاب .

فأما الدنيا فى عيني فقد اكتستُ أمامى صبغة غائمة قائمة ، ولطالما
وجدتُنى كأنى أسمعُ وساوسَ نفسى تحدّثنى بأشياء تتمثلُ فيها الفجيرةُ
والرّهَب .

ومرةً سنحَ لى خاطر مفزّع ، فأردتُ أن أفضى به إلى « العيوطى »
ليعيثنى على إنفاذه ، وخرجتُ أبحثُ عنه ، وأنا أشمُّ ريحَ الجريمة
يزُحمُ خياشيمى !

ولما لقيتُ « العيوطى » انتبذتُ به مكاناً قصياً فى دارى ، وهممتُ
بأن أناجيّه بذاتِ نفسى ، ولكن ملكتني رعدة ، وخيّل إلى أن
« العيوطى » قد انقلب شرطيّاً يحدّجنى بنظرة اتهام . . . وعن كُتب

منه جثة يشخب دمها غزيرا .

فما عتمت أن أدبرت عن « العيوطى » حيث الخطا ، وصعدت
إلى حجرتى ، وانكفأت على فراشى ملثات العقل ، محوم الجسد ،
أهدى بقولى :

مالى ولأخى ؟ ما مددت إليه يدي بسوء . إني من دمه برىء !
ورقدت فى حجرتى يومين صريع التهافت والجمول ، تلازم فراشى
زوج أخى ، وتعهدنى بألوان من الرعاية والعطف ، ولا تفتأ تطيب
الحجرة بالبخور الزكى ...

وسمعتها تقول ، وهى تضغط يدي :

ألا تغير من سلوكك يا « سامى » ؟ ... ألا تهتدى يا بُنى ؟
إنى أخشى عليك مغبة ذلك الضلال !

وبعد أن تماثلت من تلك الوعكة ، مضيت إلى « تهنانى »
أصل ما انقطع من علاقتى بها . فأقبلت على مشبوبة الشغف ، بالغة
الترحاب ، ترمى بنفسها بين يدي ، فأردت أن أستجيب لها ، وأن
أبارى عاطفتها ، وإذا بغشاوة قد انسدت بينى وبينها ، تنساب عليها
دماء ، وعلى صفحتها يتخايل وجه أخى جاحظ العين ، فاغر الفم ،
سليب الحياة ، وكأنه يؤمئ إلى إيماءة اتهام . فارتدت خطوة فى

فزِع واضطراب ، وأسندتُ إلى المتكأِ جسمي المتداعِي ، والعرق
يرفضُ من جبيني ...

وسمعتُ تهاني تقول : ما بك ؟

فأجبتُها زائغَ النظرات :

يبدو لي أني ما زلتُ موعوكا ، لم أسترجعُ صحتي بعد ...
فأسعفتني ببعض المنعشات ، وبذلتُ جهدها في التسريةِ عني .
وأدهشني من شأني أن هذه الظاهرة الجديدة كانت تعتريني في
أغلب زياراتي « لتهاني » ، فلم أكنُ أجدُ من نفسي ذلك الإقبال الذي
عهدتُه نحوها . إذا جلستُ إليها أراني قد تبدَّ حسِّي ، وانغلقتُ نفسي ،
ولبثتُ واجماً لا أنبس ، فتتنظر إليَّ « تهاني » وقد رابها أمرى ، ثم
تهزُّني في شدَّة ، وهي تقول : أفقُ ... ماذا جرَى لك ؟

— لا شيء !

— لقد خبا حُبك لي ...

فتبدو علي في ابتسامة كابية ، وأقولُ في غير اكرات :

حبي لكِ على حاله ...

فتردُّ عليّ بقولها : صارحني ... إنك تكرهني !

— أقسمُ لكِ .

وأجدُ لساني قد اُعْتَقِلَ ، وريقتي قد نَضَبَ ، فأنظر إلى « تهاني »
وقد ماكها النشيج ، ولكني أحسّ كأنني مُقَيَّدٌ لا أستطيع البراح من
مكاني ، لأ ككفَ دمعها الهامى !

٢٠

صَحَوْتُ صَبْحَ يَوْمِ يَوْزُ سَمْعِي نُوَاحٌ وَعَوِيلٌ . . .
واستبانَ لى أن أرجاء البيت كله تتجاوب بهذه الأصوات
الباكية .

فقفزتُ من مضجعي وقلبي يَرَجُفُ ، وخرجت عاديًا ، فرأيتُ
« أمَّ خضير » تعترض طريقى وهى تضرب صدرها ، ناعيةً
إلى أخى .

فَجَمَدَتْ قَدَمَايَ فى موقفي ، واسترسلتُ المرأةُ تذكُرُ أن أخى
وَجِدَ فى فراشه مَيِّتًا لا حَرَآكَ به ، فقلتُ لها متلعثمًا :

كيف ؟ لقد لمحتُه بعيني رأسى البارحة فى حجرة « مودّة هانم »
يجالسها ويتحدّث إليها ، موفورَ العافية !

— جاء أجله يا بُنَيَّ !

وتركتُ المرأةَ ماضياً إلى مُخَدَعِ أُخِي ، فوجدتُ البابَ يتجمَعُ عليه الخدمُ في ضجةٍ وتصايحٍ ، فشقتُ لى بينهم طريقاً ، ودخلتُ الحجرةَ ، فألقيتُ « مودَّةَ هانم » بجانبَ السريرِ تنتحبُ ، وشاهدتُ أُخِي ممدداً مُسَجِّجِي ، فظفرَ الدمعُ من مآقِي ، وتقدمتُ من مكانه أحسِرَ عن رأسه الملاءةَ البيضاءَ . فظهرَ وجهه شديدَ الامتقاعِ ، بالغِ النحولِ . ورأيتني أخذَ بيده ، فأطبعَ عليها قُبلةً وداعاً ، قبلةً حانيةً يتمثلُ فيها الندمُ والإستغفارُ !

وجلستُ بجوار « مودَّةَ هانم » صامتاً ، مطأطئاً الرأسَ ، أسبَحَ في ذِكرَيَاتِ الأَمْسِ ، وأخيلةِ الغدِ .

وأحييناً ليالىَ المآثمِ ، وأخذَ المنزلُ يستردُّ مألوفَ أحواله من قبلِ ، وازدادتُ أرملةً أُخِي من عزلةٍ واعتكافٍ ، فكنتُ أقصدُ إليها أقضى معها أطولَ الأوقاتِ ، محاولاً ما وسعَني أن أبثَّ في نفسها رَوْحَ العزاءِ والسَّلْوَى .

ولقد كان أكثرَ حديثها يدورُ حولَ أُخِي ، حولَ ذِكرَيَاتِهِ وسوالفِ أحداثِهِ ، فكانت تُطنِّبُ في الإشادةِ به ، وفي التمدُّحِ بخصاله ، وفي

الرجوع على نفسها باللائمة، إذ أساءت فهم مقاصده، وتقدير الملائسات التي أحاطت به .

وكثيراً ما كانت تؤكد أن طيبة نفسه وسلامة طويته أمر لا يرتقي إليه شك ، وهذه الطيبة والسلامة هي التي ورطته في مأزق تلك الفتاة اللعوب ، تلك الأفعى التي تقطر سماً . . .

وفي إحدى جلساتها رنت إلى ، وهي تسترسل في الحديث عن ما تراخى ، وقالت :

لا تحسبن يا « سامي » أن أخاك كان يطوى لك بغضاً . . .
إنه كان بك شفيقاً ، وعلى هنائك حريصاً . لقد طالما كشف لي عن خبيثة نفسه نحوك ، فعرفت مبلغ عطفه عليك ، وبره بك . فأما ما كنت تشهده من ظاهر جفوته ، فذلك طبعه الذي لم يكن له عنه تحييص .
ونهبضت تتحامل على نفسها ، وأخذت بيدي ، وهي تقول :
تعال معي ، فقد حان الوقت الذي أطلعك فيه على سرّ يتعلق بك .

وسارت بي إلى خزانة في ركن من الحجرة ، وفتحتها ، وأخرجت منها صندوقاً كشفت عنه الغطاء ، فإذا هو يحوى غوالي الطرف والألطف . وقالت لي وهي تريني إياها واحدةً واحدة :

تلك من نصيبك يا « سامي » ... إنها وصية أخيك إلى أن
أحفظها ، لتكون لك ولعروسك معك .

وسكنت قليلاً ، ثم استأنفتُ تقول :

كان أخوك أرغب ما يكون في أن يختار لك زوجاً تليقُ بك ، زوجاً
من أشرف البيوتات ، تكونُ لك شريكة العمر ، فتسعدُ بها طولَ الحياة !

٢١

ظَلِمْتُ حَليفَ البيتِ أياما ، على صدرى يَجْتُمُّ عِيبُ فادح ، وفي
رأسي معركة حامية تصطرع فيها أشتاتُ الخواطر والذكريات ، وأمام
عيني طيفُ أخى مسجى على سرير الموت ، وأنا راكع أَلْتَمُّ يَمْنَاهُ .
ليت أخى يُبْعَثُ الآن لحظةً واحدة ، لأبته ذاتِ نفسى ، وأجاهره
بما أشعر به من ندم ، وأستغفره مما كان يساور خواطرى نحوه من نزعات
الشر .

ليتَهُ يُبْعَثُ الآن لحظةً واحدة ، أسمعُ فيها من فمه كلمة الرضا

والغفران !

ما أحوَجَنِي إلى نَسْمَةٍ من الراحة والإطمئنان تَرِفُ على ضميري
المكروب ...

ووجدتني كلما ذكرتُ «تهاني» لاحقني شعورُ اشمئزاز وامتعاض ،
فلا أستطيعُ أن أتصورَ أني مُلاقٍها يوماً ، وأنى مستأنفٌ معها أىَّ علاقة
من علاقات الودِّ مُباحاً أو غيرَ مباح !

ولما طال عنها مَغِيبِي ، أخذتُ تبعثُ بالرسَلِ تَبَاعاً يحملون كتبها
إليَّ ، فكنتُ أقرأ بعضها بادئِ بدءٍ ، وأنا أبتسمُ في مرارةٍ وألمٍ ، ثم
أصبحتُ لا أتسامها إلا لأمرِّقها في بلاوةٍ وإهمال .

وحان يومُ أخبرتُ فيه «تهاني» إلى اليأسِ مني ، فكفَّتْ رسائلها
عني ، وانقضتْ على ذلك أسابيعُ لا يطرأُ عليَّ من أخبارها شيءٌ قلَّ
أو كثر ، ولا تحدتني نفسي بأن أسأل عنها أحداً من قريبٍ أو بعيد .

ورآنَ على البيتِ طابعُ أقتَمِ عابِسٍ يزيدُه مرضُ أرملةٍ أختي من
قتامةٍ وعبوسٍ ، فقد أقعدتها العلةُ أشهراً تلوَ أشهرٍ ، وهي تنداعى
وتضمحلُّ ، دانيةً من القضاء المحتوم .

وتلقيتُ نعيها ذاتَ ليلةٍ ، فملاَّتْ نفسي حسرةً مكبوتةً ، وأحسستُ
وأنا أشيعها إلى مثواها الأخير أني أشيعُ ملاذَ طمأنينتي ، وأفقدُ ينبوعاً
من الخنوِّ كان لي عذباً سائغاً .

وخلتُ لى الدار ، فبقيتُ فيها فرداً أحسُّ بنهباً قامَ صنف
يصفِر فيه الخراب . فإذا جنَّ الليل ، وأويتُ إلى محذعى ، دهمتني
وساوسُ وأوهام ، ودهانى رُعب يشيعُ فى نفسى ، ويُطيلُ أرقى ، فلا
أتمالك إلا أن أدعو « أم خضير » إلى المبيت فى حجرتى ، تردُّ عنى
غائلة الوحشة والإنفرد .

ولبتُ زمناً أحيا فى ذلك البيت العبوس ، وأعانى ما يبعثه فى
نفسى من ذكريات أليمة أحمها على كاهلى هموماً ثقلاً .

ويوماً كنتُ أترددُ فى مسالك الحديقة ، فشهدتُ « العيوطى »
مقبلاً علىّ ، وجعل يكرّر على مسمى أحاديثه التى يعالج بها أن يسرى
عنى . ثم أمسك عن الكلام لحظات ، وحدّق فى وجهى ، وهو
يقول : لماذا أنت مسترسل فى هذه الحياة الكئيبة ؟ . . . تعال الليلة
نتفرج قليلاً . . . لدى شىء ممتع أريدُ أن أُطرفك به !

... عاودتُ حياة اللهو والعبث ، بعد أن فطمتُ نفسى عنها طوال
الشهور . وأصبحَ هذا « العيوطى » يتولى لى تمهيدَ السبيل ، بعد أن
أمسى من رؤاده العتاة !

واسترعى انتباهى ما عرا ذلك القزم العظيم من تغير ، فلقد تزلّع
بعد هزال ، وانبسطتُ جادةً وجهه بعد أن كانت تعيث فيها الأخاديد

واعتلى بهامته في مشيته يزهو ويختال ، وارتدى ثيابه منتقاة ساطعة
الألوان ، وحلّى أصابعه بالخواتيم تبرق فيها كبار الفصوص .

وظلما لحنه في المشرب القائم على رأس الشارع ، يجتذب أنفاس
« النارجية » في تنفخ واعتداد .

وليث « العيوطي » يرسم لي خطة الجولات الليلية بضعة أشهر ،
وأنا مسترسل في هذا اللون من المتعة ، كأني في زورق طليق يدفع به
التيار ، دون أن يكون مني ما يعوق سيره ، أو يدير دفته يمنة
أو يسرة .

وفي إحدى تلك السهرات الهائلة ، وجدت « العيوطي » يجوس بي
خلال الحى الذى يقوم فيه منزل « الحاجة فاطمة » ، فخطر ببالي أن
أقصده ، وكنت قد انقطعت عن زيارته منذ أمد بعيد ، منذ انقطعت
أسباب التواصل بينى وبين صديقى « الزغبى » و « خيرى » ، فلم أعد
أعرف لها من أثر .

وسرعان ما بلغت الدار ، فإذا هي هي : بناء عتيق يتكأف
عليه البلى . فثلت هنيهة قبالة أسرح فيه الطرف ، وانبعث في
خاطري ذكرى اليوم الذى عرفت فيه بابه أول مرة . . . وتشابكت

الخواطر ، وتداعتُ الذكريات ، فإذا أنا أتصفح أحداثَ أيامِ الصبا
في خَطَفَاتِ بارقة .

وأخذتُ أدقَّ البابِ بذلك الأسلوبِ المعهودِ لأهلِ تلكِ الدارِ ،
فما هي إلا أن أطلَّ الوجهُ المألوفُ من الطاق ، وما هي إلا أن صرَّ
البابُ يتزحزح ، وما هي إلا أن بدتْ ذُبابةُ الشمعةِ تُجاهدُ أن تجنَّبنا
عقباتِ الطريقِ ، وما هي إلا أن بلغتْ أسماءنا جَلْبَةَ المعازفِ وأهازيجِ
الغناء ...

واحتوتُنَا أخيراً تلكِ القاعةُ الفسيحةُ فيها أجناسٌ من خلقِ الله ،
يتجلى في جانبٍ منها عرشُ « الحاجة فاطمة » وهي تعمُرُ أركانهَ بادنةً
متلفةً بنخمارها الأبيضِ الناصعِ في مَهَابَةِ وِجَالِ .

وما إن رأتهُ قادمًا عليها ، حتى ردَّدتُ كلماتِها الخالدة :

ما شاء الله . . . ما شاء الله !

ثم ما عثمتُ أن نادتُ غلامها قائلة :

انظرْ ماذا يطلبُ ضيفنا « البك » .

وأطالتُ في وجهي نظرَها تقول :

ماذا ألهاكَ عنا؟ ... طالتُ غيبتكِ ، وحرَّمتنا أنسك !

وتنازعنا الأحاديثَ بيننا ، على حينِ كانت « الحاجة فاطمة »
تجذب أنفاسَ « النارجية » في نشوة واستمتاع .

وبعد قليل نهضتُ إلى سِرِّبٍ من الغواني أجالسهن ، وأقارعهن
كؤوس الشراب ، وانبعثَ غيرَ بعيدٍ صوتٌ ما كدتُ أسمعُه حتى
اهتزتُ أوصالي ، فتطلعتُ أعرِّفُ : لمنِ الصوتُ ؟ فواجهتُ امرأةً
تبارحُ إحدى الحجَر ، فوجدتني لا أملكُ إلا أن أنهضَ صَوْبَها ،
وقلبي يَرَجُفُ ، وتَبَيَّنَتْنِي على الفور ، وأحسستُ بأنَّها تُوشِكُ
أن تُصعقَ ، ولكنها ما لبثتُ أن تمالكتُ ، وأطلقتُ من فمها
ضحكةً عاليةً مفتعلةً ، وسمعتها تقول في صوتٍ أبحٍ :

أنتَ هنا يا « سامي » ؟ ...

وتدانيتُ من « تهاى » صامتاً تعتصرُ الحسرةَ قابي ، ثم أخذتُ
بيدها الألفها ، وراعني ما لحقها من تغيرٍ : عين غائرة زارها التكحل
من بشاعة ، ووجه شاحب حارتُ في أمره ضروب الطلاء والمساحيق ،
وثوب شفيف يحاول بما فيه من برقشة رخيصة ملوثة أن يدلَّ على
تَرَفٍ مكذوب . وَزَ كَمَتْنِي هَبَّةٌ من رِيحِ الخمرِ كانت تنبعثُ منها في
حدَّةٍ واشتداد .

وقادتني « تهاى » إلى حجرتها ، فألفيتها أمشاجاً مهوَّشة من

ثياب وأثاث ومتاع ؛ مغمورةً بأخلاق من الروائح متنافرةٍ تبعث على الغشيان .

وقالت لى وهى تجتلبُ ابتسامة كريمة :

مالك تنظر إلى الحجرة هذه النظرات ؛ ألا ترؤقك ؟

— جميلة !

فارتفعت ضحكها ، وهى تقول : أعترف لك بأنها أقلُّ جمالا

من منظرنا القديمة ... منظرنا التى قضينا فيها أيامنا الخوة !

ثم رأيتها تقبل على قافلة فى تحنن :

ألا تذكر أيامنا الخوالى ؟ ألا تذكر ؟

— عيد مضى يا « تهاى » !

— هذا شأن الرجال . . . لا يبقى لهم عهد ، ولا يدوم لهم وفاء !

— أكان ممكناً أن تظلّ علاقتنا لا ينقطع لها أمد ؟

ورأيت وجهها يتقلص ، وإذا هى تقول متسائحة مزهودة :

لا تحسبن أنى أريدك على شىء . . . إن عليّة القوم يخطبون ودى

فوجاً بعد فوج . . .

واندفعت تؤكّد هذا المعنى بألوان من التعبير ، وأشارت إلى

ما حولها من حُطام المتاع ، وهي تقول :

انظر إلى هذا كله . . . إنه هدايا الأصدقاء والخلائق !
وبينا هي في حَمِيَّة وحماسة تُطَنِّب وتُشِيد ، وتُبَدِّئ وتُعِيد ،
رأيتها تنفجر دَفْعَةً واحدة في بكاء مَرِير ، وارتمت على صدرى متشبهة
بى ، فلاطفتها مُشَفِّقًا ، ولكنى أحسستُ بوِطْأَة جَسَدِها على ، كأنها
ثِقَلٌ من الهم لا قِبَل لى باحتماله ، فذهبتُ بها إلى المَتَكِّاء ، وأجلستُها
نجوارى ، وهي فى بكائها تتماذى ، وأنا لا أفتأ أواسيها جَهْدِي .

وقامتُ إلى منضدة الزينة ، تسوَّى من شعرها وتنعطر ، ثم
أفرغتُ كأساً من الخمر فى فيها ، وأثرتُ كأساً عادتُ بها إلىّ وهي
تقول : ما أحلى اللقاء بعد طولِ بَعاد . . . ما أجمل أن نتَهَيَّرَ هذه
الفرصة لنستعيدَ حياةَ المتعة والبهجة والسراح !

فأخذتُ الكأس من يدها ، ووضعتها جانباً ، لم أقربُ منها
جُرْعَةً . ورأيتُ « تهانى » تهبطُ علىّ تقبلنى قبلةً شعرتُ كأنها لدَغَةٌ
ثعبان . فزحزحتها عنى فى رِفْقٍ ، وقلتُ وأنا أنتزع الكلمات انتزاعاً :

أشكر لك لطفك يا « تهانى » . . .

— ألسنتُ تحبُّنى يا « سامى » ؟

— وهل فى ذلك شكّ ؟

ونَهضتُ من ساعتى ، وأنا أتابعُ قولى :
سأزورك فى فرصة قريبة ... قريبة جداً .
وهمتُ بالخروج من الباب ، ولكنى وجدتنى أقفُ لحظةً
أُخْرِجُ فيها من جيبى ما تيسَّر من المال ، وما لبثتُ أن تركته أمامها
على منضدة الأريكة ، ومَرَقْتُ من الحجرة ماضياً إلى الطريق ، عجلانَ
الخطأ ، كأننى أفرُّ من الجحيم ...
ولما كنتُ على رأس الشارع ، أنقيتُ على بيتِ « الحاجة فاطمة »
نظرةً كانت وداعاً إلى الأبد !

٢٢

دارت بنى حيلة اللب فى معيشتها بين خمر ونساء ، وانقلب يومى
رأساً على عقيب ، فأصبح نهارى نوماً وخمولا ، وأمستى ليلى سهراً
وعر بدة !

وأدركتنى ذهابة عن أمرى ، فكنتُ فى ذلك التيّار الجارف ،
لا أبالي إلى أى مصير أنا مسوق .

ويوماً دخل عليَّ « العيوطى » وأنا فى مَخْدَعى قُبَيْلَ الظَّهِيرِ ،
و بيده بِطَاقَةٌ كَبِيرَةٌ مَزخَرَفَةٌ ، وهو يقولَ وفمه تملؤه ابتسامة ضخمة :
هذه بُشْرَى خَيْرِ يَاسِيدى . . . هَاكَ دَعْوَةٌ فَرِحَ جِئَاكَ بِهَا
البريدُ السَّاعَةَ !

فتناوتُ البِطَاقَةَ وَأَنَا أَقْلِبُهَا بَيْنَ يَدَى ، ثُمَّ فَضِضْتُ غِلَافَهَا ،
وَجَعَلْتُ أَقْرَأُ ، ثُمَّ رَفَعْتُ صَوْتى بِجَمَلَةِ الخِتَامِ ، مُوَاجِهاً « العيوطى »
قَائِلاً : وَالْعَاقِبَةُ عِنْدَكُمُ فى المِسرَاتِ .

فصاح قَائِلاً : وَمَتى نَحْظى بِذَلِكَ الفَرِحِ !

— أَتُرِيدُ أَنْ تَرْحَلَ إِلَى الصَّعِيدِ مِنْ أَجْلِ عُرْسٍ ؟

— حَفَلَاتُ الأَفْرَاحِ جَدِيدَةٌ أَنْ تَرْحَلَ مِنْ أَجْلِهَا إِلَى آخِرِ

الدُنْيَا . . .

— إِذْنِ فَاعِدْ نَفْسَكَ لِلسَّفَرِ بَعْدَ غَدٍ .

وَنَهَضْتُ مِنْ فِرَاشى ، وَالبِطَاقَةُ بَيْنَ يَدَى ، أُعِيدُ قِرَاءَتَهَا ، يَعْلَمُ

فمى ابْتِسَامِ .

ثُمَّ دَنَوْتُ مِنْ « العيوطى » أَضْرِبُ كَتْفَهُ قَائِلاً :

أَتَعْلَمُ مَنْ الدَّاعِى ؟

— لَا يَعْلَمُ الغَيْبَ إِلا اللهُ !

— أهدأ أقرانى فى المدرسة . . . انقطعت بيننا الصلة منذ سنين

طوال !

ثم أخذت أذرعُ الحجرة ، وأنا أهمهم : « خيرى » . . .

« خيرى » . . . ترى ماذا أخطر اسمى بياله بعد هذه الغيبة الممدودة ؟

ها هو ذا بينى بيتاً وينشئ أسرة . من ؟ ذلك الصبى الذى لم يكن

يُحسِنُ إلا قرَضَ أظفاره . . . لله فى خلقه شئون !

وأبرقتُ إلى « خيرى » أعلمه بموعد قدومى عليه ، وأقلنى القطار ،

أنا و « العيوطى » فى مدخل الليل ، فبلغنا محطة الوصول قبيل السَّحَرِ ،

وكان فى استقبالنا جَمْعٌ من الأعوان والأتباع ، يحملون المصاييح ،

ويغمروننا بالحفاوة متهللين متصايحين .

واحتوتنا مركبة سارت بنا تحفُّ بها المطايا عليها المشاعلُ تفسحُ

لنا الطريق .

وأخذ من نفسى ذلك الركب الفخم ، فملت على « العيوطى »

منتشياً أقول له :

ما أشبه ركبتنا هذا بموكب العرس . لك أن تحسب نفسك عروساً !

وانطلقت المركبة تشقُّ غبشَ الليل ، والطبيعة من حولى بالغة

الهدوء ، وأنام السَّحَرُ الرطبة تصافح وجهى فتبعث فى انتعاشاً وبهجة ،

وتشير في نفسى الشعورَ بأنى قد انتقلتُ إلى دنيا جديدة لا عهدَ لى بها
من قبل .

وانسرحَ بى الفكر فى آفاقِ رحابِ من الأخيلىة والخواطرِ ، وعلى
الرغمِ من بُعدِ الشُّقَّةِ ، وعناءِ الطريقِ ، فإنى لم أستشعرُ شيئاً من جهدِ
أو مَلالةِ . وكنتُ أتبيّنُ نورَ الفجرِ ، وهو يُولدُ خيطاً أبيضَ ، ثم لا يلبثُ
أن ينتشرَ فى عُرْضِ الأفقِ لَمّا حاحَ يحملُ إلى الكونِ رسالةَ اليومِ
الجديدِ . . .

وأقبلنا على الدارِ ، تتجلى بما عليها من أضواءِ ساطعةٍ ، كأنما تمدُّ
فى عمرِ الليلِ ، وتستهبزى بِمَطْلَعِ الفجرِ !
وما كدتُ أبرحُ المركبةَ حتى وجدتنى بين ذراعين تلتفآن علىّ ،
والقبلاتِ تتناثرُ على وجهى يَمْنَةً وَيَسْرَةً ، وكلماتُ الترحيبِ تتوالى
وتتكرّرُ ، وإذا أنا آخذُ بيدِ « خيرى » أهزّها فى تشوقٍ وتوددٍ ، قائلاً :
مباركُ لك الزواجِ . ذلك هو اليومُ الذى كنا نتمنّاهُ . . . أن نراكَ
فى فرحكِ ، وأن نسعدَ بكِ ، وأن . . .

فقاطعنى « خيرى » يومىً إلى شخصٍ بجانبه ، وهو يقول :

دعْ عنك هذا الكلامِ ، وانظرِ . . . أتعرفُ مَنْ ذاكِ ؟

فَنظَرْتُ أَتَعَرَّفُهُ ، فَأَلْفَيْتُنِي أَمَامَ رَجُلٍ عَرِيضِ الْمَنَكِبِينَ ، مَجْمَحِ
الشَّارِبِينَ ، يَرْتَدِي الْجَلْبَابَ الصُّوفِيَّ السَّابِعَ ، فَوَقَفْتُ أَتَفَرَّسُ فِيهِ
لِحْظَةً ، وَقَلْتُ : أَمَمَكُنْ هَذَا ؟

فَمَا لَبِثَ الرَّجُلَ أَنْ صَاحَ بِي :

أَنْسَيْتَ « الزَّغْبِيَّ » يَا وَالدُّ يَا « سَامِيَّ » ؟

وَمَا هِيَ إِلَّا أَنْ وَجَدْتُنِي فِي زَوْبَعَةٍ مِنْ تَرْحِيبِهِ بِي ، وَإِقْبَالِهِ عَلَيَّ ،
وَاحْتِضَانِهِ إِيَّايَ ، وَكَأَنِّي عُودٌ مِنْ أَعْوَادِ الْقَصَبِ دَارَتْ عَلَيْهِ مِعْصَرَةٌ
عَاتِيَةٌ !

وَسِرْتُ بَيْنَ « الزَّغْبِيَّ » وَ « خَيْرِيَّ » نَدَخُلُ الدَّارَ ، وَالنَّاسُ
حَوْلَيْنَا زَرَافَاتٌ ، فَرَأَيْتُ « الْعِيُوطِيَّ » تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضَ أَمَامَنَا يَفْسَحُ
الطَّرِيقَ ، وَيَقُولُ عَالِي الصَّوْتِ ، مَتَطَاوَلَا بِقَامَتِهِ : مَا أَحَلَّى اجْتِمَاعَ الشَّمْلِ
بَيْنَ الْأَحْبَابِ ، وَلَتَّحَيَّ الْأَفْرَاحَ وَاللَّيَالِي الْمَلَّاحَ !

وَاحْتَوَيْنَا مَنَظَرَةَ الضِّيُوفِ ، وَجَلَسْتُ مَعَ صَدِيقِي صِبَايَ نَتَطَارَحُ
الْأَحَادِيثَ وَنَتَذَاكِرُ تَصَارِيفَ الزَّمَنِ ، فَعَامَتُ بِأَنَّ « خَيْرِيَّ » الْآنَ
قَدْ تَمَوَّلَ وَأَثْرَى ، وَصَارَتْ لَهُ ضَيْعَةٌ يَحْسُنُ تَدْبِيرَهَا وَتَنْمِيرَهَا . فَأَمَّا
« الزَّغْبِيَّ » فَأَمْسَى مِنْ مَلُوكِ التِّجَارَةِ فِي الْحُبُوبِ مِنْ قَمْحٍ وَعَدَسٍ وَفُؤُولٍ ،
وَكَأَنَّ تَزْوِجَ وَأَعْقَبَ . وَكَأَنَّ الصَّدِيقَيْنِ يَقِيمُ فِي الصَّعِيدِ ، وَكَلَاهُمَا عَلَى مَقَرَّةٍ

من صاحبه ، وهما يتبادلان المؤازرة والعون ، ويتعمان بحياة هادئة طيبة
في طريق مستقيم . . .

وفجأة رأيتُ « الزغبى » يميل على قائلا :

وأنت يا « سامى » . . . ماذا فعل الله بك ؟

خففتُ من بصرى ، وغصبتُ بريقى ، وعييتُ عن الجواب ،

فلكرزنى بيده مداعباً يقول :

ماذا وراءك ؟ هلاً أخبرتنا بشأنك ؟

فرفعتُ بصرى إليه ساهماً أهمهم : حياتى على ما هى عليه !

وأنقذنى مما أنا فيه من حرج قدوم أحد أعوان البيت ، وهو يحمل

طفلاً ما زال فى عينيه خدر النوم ، والطفل يتصايح طالباً أباه ، فنهض

« الزغبى » يتلقاه ، ويعود به مطيئاً خاطره ، مرتباً كتفه ، وما هى

إلا أن دفع به إلى وهو يقول له : اذهب فقبل يد عمك يا ولد . . .

وانبرى « الزغبى » يفيضُ فى الحديث عن طفله وما يبيديه من

نشاط ، وما يأتى به من مشاغبات ، فقلت له :

الولد سرُّ أبيه . . . ومن يشابه أبه فما ظلم !

وضججنا بالضحك جميعاً .

ولبتَ الطفل بين يدي ، أهدق فيه ، وأنا أستمع إلى حديث أبيه .

وسنح بيالى خاطر مفاجىء ، فقلتُ أناجى نفسى :
ماذا كان يبلغ طفلى الآن من العمر ، لو قدّر أن يكون لى طفل ؟
ونجّمتُ على الفور فى خاطرى صورة « فتحية » ووجهى الوديع
تكسوه مسحة اليأس ، وعينها تتحير فيها الدموع !
فعاجلتني انتفاضة تفرّ لها قلبى من تحسّر والتضاع ، وظلمتُ غير
قليل أعانى الكمد ، ولكنى ما زلتُ بنفسى حتى تمالكتُ ، خشيةً
أن أفسدَ على صاحبي ما يستمرّ ثابته من متعة وصفاء .

وكان أكبر ما جرى فى تلك الزيارة مؤكب الزفاف ، فقد
أعدتُ فى العشيّة مركبة زينتُ بالأزاهر ، وأحيطت بالرايات
والشرائط أشكالاً وألواناً ، وجلس فيها العروس ، وأنا عن اليمين
و « الزغبي » عن الشمال ، وسارت بنا تطوف الباردة على أضواء الشاعل
والشموع ، فى جوقة من المنشدين وحملة المعازيف ، من حولهم
حشود من الأهل والصحب ، وجموع من سكان الباردة يتراقصون
ويطربون .

وفرغنا من الطواف فى منتصف الليل ، فما إن حللنا الدار حتى
استقبلتنا عواصف ثائرة من الأغاريد والأهازيج تنطلق بها حناجر
النساء .

ولما أُرِفَ موعدُ التقاء العروسين ، أُلِفِتُ « خيري » مهتاجاً
يمسح ما تصبَّب من عرقه ، وانحنى على أظفاره يَقْرِضُهَا فِي تَتَابُعٍ ...
يوماً اثنان قضيتهما في ضِيَاةٍ ذلِكَ العُرسِ ، نَعِمْتُ فِيهِمَا بِالكَثِيرِ
من بواعث اللطف والإيناس ، وَلَقِيتُ فِيهِمَا صَنُوفاً مِنَ الحَفَاوَاتِ
والجاملات ، وتعددتُ فِيهِمَا أَمَامَ عَيْنِي ضُرُوبٌ طَرِيفَةٌ مِنَ التَّسْلِيَةِ
والإبتهاجِ ، وَلَكِنِّي أَعْرَفُ بِأَنَّ مُتَعَتِي فِي هَذَيْنِ اليَوْمَيْنِ لَمْ تَخْلُصْ مِنَ
الشَّوَابِ ، فَقَدْ كَانَتْ تَعْتَادُنِي أَطْيَافَ مِنَ كَأَبَةِ وَاعْتِمَامِ ، فَأَجِدُنِي أَهْمِيماً
فِي أودية من الأفكار تُشَرِّدُ بِي كُلَّ مُشَرِّدٍ ...

وكان قفولِي مِنَ الصَّعِيدِ فِي قِطَارِ الصَّبَاحِ ، فَقَضَيْتُ سَاعَاتِ السَّفَرِ
الطَّوَالَ مَنهولَ الجَسَدِ ، خَامِداً الأَوْصَالَ ، أَغْفُو بَيْنَ فِتْرَةٍ وَأُخْرَى ،
وإِطْلَامًا خَيْبًا إِلَى أَنِّي أَسْمَعُ صَوْتَ « الزَّغْبِي » يَسْأَلُنِي :

مَاذَا فَعَلَ اللهُ بِكَ ؟ هَلَّا أَخْبَرْتَنَا بِشَأْنِكَ ؟ !

ثُمَّ يَتَرَاءَى لِي شَبَّاحُ طِفْلِهِ ، وَهُوَ بَيْنَ يَدَيَّ أُطِيلُ فِيهِ النَّظَرَ ،
وَأَنَا أُحَدِّثُ نَفْسِي :

مَاذَا كَانَ يَبْلُغُ طِفْلِي الْآنَ مِنَ العَمْرِ ، لَوْ قُدِّرَ أَنْ يَكُونَ لِي

طِفْلٌ ؟ !

وفصلتُ عن القطار آيباً إلى داري ، ووطأة الكآبة والإغتمام
تتناقلُ عليّ ، وتعصفُ بي .

وصُبْحاً نزلتُ إلى الحديقة أروّح فيها عن نفسي ، وسافقتني خطاي
إلى أقصاها ، فإذا أنا أرى الجبّ . . . ووقفتُ حِيالَه أحدقُ فيه ، ثم
خطوتُ أدخله ، فاعترضتني أطباقُ الظلمة ، وثارت عليّ ريحُ عِفْنَةٍ
ولكنني على الرغم من ذلك كاه أقدمتُ ، حتى بلغتُ الفجوة ، ومكثتُ
فوقها أنعمُ النظرَ على ضوءِ عودٍ من الثَّقبِ أشعته ، ثم رجعتُ من
فوري أعجب من أمرى : كيف قضيتُ دهرأ أتهيبُ ذلك المكانَ
المهجورَ الذي ليس فيه ما يوجب رهباً ولا خشية ؟

وذكرتُ موقفَ « فتحية » من هذا الجبِّ منذ أعوام ، إذ لم
تحشَ منه شيئاً ، وإذ أقدمتُ تقفحه وتكشِف ما فيه ، فلما ذكرتُ
ذلك هزَّتني إلى « فتحية » عاطفة من تشوُّقٍ وحنين !

وأبى شَبَّح « فتحية » إلا أن يلازمَني يومى كاه ، يتنقلُ معي حيثما
حللتُ ... شَبَّحُها في ذلك المظهر الوديع الذي يتوضح فيه الحزن والقنوط !
واعتملتُ في نفسي مشاعر وإحساسات ظلت تحتدّ وتشتدّ ،
فناديتُ « العيوطى » أحدثه ، وانتهينا إلى أمرٍ مقررٍ ، رسمنا له خطته ،
وأعدونا عدته ...

وَبَكْرَةَ غَادِرَتُ الدَّارَ ، يَقْفُو أَثَرِي « العيوطي » إلى « المحطة » .
لقد آليتُ على نفسي أن ألتقى « فتحية » حيث تكون ، مهما
يصادفني من عراقيل .

وبدأتُ البحثَ والتحرِّيَ ذاهباً إلى الضيعة التي انتقلتُ إليها
« فتحية » أولاً عند زوجها شيخ الخفر

ومن ثمة استقيتُ مختلفَ المعلومات والأبناء ، وواصلتُ السفر
أسأل وأتقصي ، حتى بلغتُ القرية التي انتهتُ إليها مَصِيرُ « فتحية »
آخرَ الأمر .

ولما دخلتُ القرية استهديتُ إلى بيتِ شيخ الخفر ، وحثتُ
إليه الخطأ ، وقلبي سريعُ الخفوق . فلما قاربتُ البيت ، لحتُ على
مَصْطَبَتِهِ امرأةً مقوَّسةَ الظهر ، باديةَ الشَّيبِ ، مستغرقةً في تفكير .
فدنوتُ منها أحدقُ فيها وأتفحصها ، وبغتةً صنحتُ :

السيدة « هاجر »

ورفعتُ المرأةَ رأسها ، وقد اختلجَ جُسمانها اختلاجةً تطلُّع ،

وهميمتُ تقول : من ؟ !

فقلت : ألا تعرفينى ؟ أنا « سامى » . . .
وأقبلتُ عليها أصافحُها فى تحنُّنٍ وتأثُّرٍ ، وأنا أقول :
منذُ الصبح وأنا أبحث . . . أين هى ؟ أين « فتحية » ؟
فما أسرع أن أجهشتُ بالبكاء ، وأخذتُ بيدي تجلسُنِي بجوارها
وتقصُّ عليَّ ، مختنقةً الصوت ، شَرِقةً بالدمع ، ما جرى من أحداث
وما كان من مصاير . . .

وشددتُ على يديها ، وقلتُ لها راجفَ النبرات : أماتتُ ؟ أحمقاً ؟
وتخاذلتُ أوصالى ، وغشيتُنا صمتُ برهة .
ثم أنبهنى صوت رفيع من جوفِ الدار ، ينادى :
جدَّتى . . . جدَّتى !

فسموتُ برأسى أتبين ، وقد ثارتُ نفسى ، فرأيتُ طفلاً يدرُج
من الباب ، قاصداً السيدة « هاجر » وما إن وقعَ بصره علىَّ حتى
رمقنِي فى خوفٍ وحذرٍ ، وأسرعَ إلى حِضْنِ جدَّته ، يَحْتَمِي به .
وسمعتُ السيدة « هاجر » تقول :

هذا طفلي . . . انظرُ إليه يا « سامى » . . . طامنا كانتُ
« فتحية » تُحدثنِي أنه صورةٌ منك !

فاتقدتُ عيناى ، أتفرّسُ فى وجه الطفل ، وبسطتُ له ذراعى ،
فانكش عنى ، فلاطمئنتهُ السيدة « هاجر » وقالت له :
هذا الأفندى يحبك ، فلا تخفُ منه يا « فتحي » . . . سيحضر
لك لعباً وحلوى !

فالتفتَ الطفلُ ينظرُ إلى ، مستريباً لى ، وفى عينيه استطلاع
وفضول . فقلت له : لقد أحضرتُ لك أشياء لطيفة . . . انظر . . .
وأخرجتُ له ساعتى أريه إياها ، فأنجذبَ نحوى واهنَ الخطأ ،
ومدَّ يده إلى الساعة يقلبها ويتفحصها ، فأعنتهُ على أن يضعها على
أذنه ليسمعَ دقاتها ، فأشرقتُ أسارىره ، وفرقتُ ضحكاته .
وجعلتُ أتأملُ قسّماتِ وجهه ، فكأنى كنتُ أقرأ فيها سطوراً
من ذكرياتِ حافلة .

وكنتُ كلما حدّقتُ فى عينيه الصغيرتين عرّتني نشوة ، فأخذته
بين ذراعى ، وطبعتُ على خدّه قبله حانية ، ثم وسّدتُ رأسه صدرى ،
وجعلتُ أداعبُ شعره .

ومرتُ بى هنيهة ، وأنا هائم فى أحلام ، وبدأتُ أستشعرُ
طمأنينةً وسكينة ، وإذا الدنيا من حولى كأنما قد انجابَ عنها قتامها ،
وأخذتُ تُشرقُ وتبتسم .

لكأني كنتُ من حياتي في متاهةٍ أُضرب في وَعَثَائِهَا على غيرِ
هُدًى ، وإذا أنا بعدَ لأني يتوضَّح لي طريقُ الخلاص . . .
وتراءى لي أني أسيرُ في ذلك الطريق ، آخذاً بيد وئدي ،
مستقيماً الخَطْو ، يحدوني أمانٌ بسَّام ، ويشيعُ في نفسي أمانٌ
وسلام !

obeykandl.com

شيخ الزاوية

على الشاطئ الأيمن من ترعة « الخليلية » قريباً من بلدة « المحاريق » ، تقوم زاوية للصلاة ، هيئته المظهر ، صغيرة المساحة ، ولكنها على الرغم من ذلك لا تخلو من القُصَادِ في الصلوات الخمس كل يوم ، ولا سيما صلاة الجمعة من كل أسبوع ، إذ يتوافد الناس عليها زرافاتٍ من كل فجّ ، حتى تضيقَ بهم رُقعتهَا ، فلا تملك جموعهم إلا أن يتخذوا من حولها مُصَلًّى في الطريق ...

وإن زاوية « الخليلية » آتزداد قُصَاداً على مرّ الأيام ، طوعاً لما يتمتع به إمامها « الشيخ نعيم » من شهرة واسعة ، وصيتٍ بعيد . فلقد تسامع الناس في أحشاء القرى المجاورة ، والبلاد القاصية ، بهذا الإمام الجليل ، وتناقلوا الحديث في روعةِ مواعظه ، وقوة صلاحه ، وأجمعوا على أن دعوته ليس بينها وبين السماء حجاب . فكانوا حِرَاصاً على أن يغتنموا بركة الإتيان به ، والصلاة معه ، وأن يتزودوا مما يلقيه عليهم

من حُطْبِهِ الرِّثَاءُ زَاداً طَيِّباً لِلْحَيَاتِينَ : العَاجِلَةُ وَالْآجِلَةُ ...
وكان بعضُ من تحتويهم الزاوية في صلاة الجمعة ، يقدّمون إليها
في الضحوة الباكِرة ، متجشّمين مشقة الرِّحَالَةِ من أقاصي الرِّيفِ ،
متنافسين في اتِّخَاذِ مجالسهم عن كَثَبِ مِنَ الْمُنْبَرِ ، لا يريدون بذلك
الصلاة عُسْبَ ، ولا تستهويهم خطبة الجمعة وحدها ، وإنما هم مَرْضَى
تعاصت عليهم السبل ، ولم تُجِدْ في شفائهم الخيل ، فعَجَلُوا إلى شيخ
الزاوية يرتقبون منزله من المنبر عقب الخطبة ، ليأخذوا بحاشية جَبْتِهِ ،
ويمسحوا بها الوجوه ، فإذا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ نهضوا إليه يلتمسون يده ،
ويلتمسون دعاءه أن يفرِّجَ اللهُ عنهم الكَرْبَ ، ويزيلَ السَّقَامَ ...
وإن دعاء هذا الوليِّ الصَّالِحِ في هذه السَّاعَةِ الْمُبَارَكَةِ تَقْمِينِ أَنْ يظفَرَ
بِالِاسْتِجَابَةِ وَالْقَبُولِ .

كان « الشيخ نعيم » رجلاً مهيبَ الطَّلَعَةِ ، تتجلى على أساريره
علامُ الإِيمَانِ العميق ، وكان بَأَنَّ الطول ، ضامراً الجَسَدَ ، حَسَنَ
الملامح ، تَزِينُهُ حَيَّةٌ مَهْدَبَةٌ وَخَطَّهَا الشَّيْبُ ، فكساها حَبِغَةُ الْوَقَارِ ...
وهو ذو عينين نجلاوين ينبعث منهما تيار قويّ يبهَرُ الأَبْصَارَ ، وَيَنْفُذُ
إلى القلوب .

ولقد وهب الرجل حياته للتعبُدِ ، وقصر عمله على إبلاغ رسالة

الدين ، وهداية الخلق إلى الطريق المستقيم . . . فإذا تكلم تدرت على
كفه آيات القرآن وأحاديث الرسول وأمثال الصالحين ، وإذا خطا في
الطريق وجدته مطاطاً فوق سبوحته يغمم بذكره أو ينادي ربه ،
وإذا اعتلى منبره يوم الجمعة تدفق لسانه بفصيح الكلام ، وتدفع صوته
قوى الجرس ، فلا يلبث بيانه أن يلمس شغاف الأفتدة ، يرف عليها
حيناً برداً وسلاماً ، وينصب عليها تارة ناراً موقدة ، وفي يده سيفه
الخشبي يلوح به ذات اليمين وذات الشمال ، فتهتز الزاوية بمن حوت ،
كأنما أصابها زلزال ، وما هي إلا أن ترى الناس شاخصة أبصارهم ،
خاشعة أجسادهم ، كأنهم قد مسهم سحر . . .

ولم يكن الرجل يعرف في دنياه منابة غير البيت والزاوية . . . فهو
إمماً في بيته يصيب طعامه ومنامه ، وإمماً في زاويته قائماً يصلي أو جالساً
يتحقق حوله نفر يطلبون عنده الموعظة الحسنة ، أو يرفعون إليه مظلمة
بعضهم من بعض ، أو يلتمسون منه حكم الشرع فيما يعرض لهم من
شئون العيش وأحداث الحياة . . .

وإن أهل بلدة « المحاريق » ليذكرون « للشيخ نعيم » أنه منذ
فتوة سنه ، دمث الشمائل ، طيب المعاشرة ، تتوضح فيه سكينه
النفس ولين الكلام . . . وأنه أسبق الناس إلى صلاة ، وأحرصهم

على أداء فرض ونافلة ، وأكثرتهم ولعاً بالتفقه في الشريعة ، واتمكن
في آداب الدين . . . فلا غرو أن يقيموه إماماً للزاوية ، ولم يستكمل
عامه الخامس والعشرين ، وها هو ذا قد مضى له أكثر من عشرين عاماً
في منصبه الكريم ، يزداد على الأيام من ورع وتقوى ، ويزداد له
الناس من حب وإكبار . . .

و « الشيخ نعيم » يؤمن بأنه من السلالة النبوية المطهرة ، وأن الله
قد اختاره هادياً ومرشداً لهذا البدار وما حواه ، وكثيراً ما رأى نفسه في
المنام ، وقد حفت به ملائكة أبرار ، ورفرفت فوق رأسه رايات
خضر ، وظلما ترمى إلى أذنه في جوف الليل صوت الماتف يهيب به
أن ينبعث هداية الخلق ، وأن يكون في عون الناس ، فإذا هو ينتفض
اعتياجاً ، وإذا هو ينهض فيتوضأ ، ولا يفتر يتبجد . . . وكان لذلك
يستجيب ناشطاً حين يدعى للسهر بجانب مريض يقرأ على رأسه
التعاويد ، ولا يقصر في تيسير حاجات الفقراء والمساكين ما استطاع . . .
فقد ينزل عن طعامه لجائع يتصدده ، وقد تراه في الحقول يعين أحد
الفلاحين في الحرث والري ، حسبةً لوجه الله .

وربما بات « الشيخ نعيم » طاوي البطن ، لا يجد ما يتبلغ به ،
وهو على ذلك منشرح الصدر ، يغمره الرضا . وربما أدركه الشتاء وهو

لا يملك من الغطاء إلا جُبَّتَه البالية ، فيشعر في قرارة نفسه بدِفءٍ عظيمٍ . . .

وكذلك عاش الرجل في الحياة ، حائماً في يقظته وفي نومه ، تتراءى له أخيالة رائعة يتمثل بها مقامه عند ربه ، ونعيمه في جنة الخلد ، جزاء لمهمته الجليلة في هذه الدنيا . . . تلك الهممة التي يختص الله بها أوليائه الأطهار .

فأما أسرة الرجل التي تَعُمُر بيته ، وإن شئت قلت : كوخه ، فلم تكن إلا زوجةً بنى بها منذ فاتحة شبابه ، وهي تكبُرُه بسنوات قلائل ، وقد تزوجت قبله ، ثم توفى عنها زوجها ، فضمَّها الشيخ إليه رحمةً بها ، وظل معها في عيشة هادئة راضية ، خلال تلك السنين الطوال .

وبينا « الشيخ نعيم » في مُنْصَرَفِه من الزاوية بعد صلاة الجمعة ، وهو مائلٌ على سُبْحَتِه يناجيها ، إذ انتهى إلى سمعه صوت متخشعٍ يناديه ، فالتفت يتبين الأمر ، فألقى رجلاً يُدْبِعُه في خطأ متعثرة ، فعطف عليه الشيخ يسأله : مَنْ أَنْتَ ؟

— أنا « عبد التواب » .

— من أي البلاد ؟

— من الكفر المجاور . . .

— ما الخبر ؟

فقبل عليه الرجلُ آخذاً بكمِ جيبته يقبله ويُندبه بدمعه ، فقال له الشيخ : هون عليك يا بني ، وقصّ عليّ ما تشكو . . .

فانتبذ به الرجلُ ناحية ، وطفق يخبره بأنه أوقع على زوجته الطلقاتِ الثلاث ، ولكنه يلتمسُ إلى ردّها سبيلاً .

فأخذ الشيخُ يسأله ، ليستجلى أمرَ هذا الطلاق ، فلما علم الأمرَ على وجهه ، قال له : لا سبيلَ إلى معاشرتكِ إياها إلا أن يتزوجها رجلٌ غيرك . . . فإن طلقها كانت لك من بعده حلالاً .

فسأله الرجلُ في تحسّر : ألا من سبيلٍ غير تلك السبيل ؟

فقال الشيخ : هذا شرعُ الله يا بُني !

فكسَّ الرجلُ رأسه لحظةً وقد استيأس ، ثم تهبياً للانصراف ، فأخذ الشيخُ طريقه ، واستأنف الإقبالَ على سُبْحَتِهِ ، ينقلها بين أصابعه . . .

وفي أصيل الغد ، كان « الشيخ نعيم » يغادرُ الزاوية ، وقد فرغَ

من صلاة العصر ، فرأى الرجل الذي تَبِعَهُ أَمْسٍ قَدْ عَادَ إِلَيْهِ ، وما لبث أن خلا به في ناحية ، فجعل الرجل يَفْرُكُ يديه ، وقد مال برأسه ، ثم تحدّث إلى الشيخ في شأن زوجته المطلقة ، وهو يقول : لقد حتمت ياسيدنا الشيخ أن تتزوج المرأة رجلاً غيري ، حتى تحلّ لي من بعده . فقال الشيخ : أَجَلُ يَا بُنَيَّ . . . ما من ذلك بُدّ !

فازداد الرجل ميلاً برأسه ، وقال مججماً كأنه يتحدّث إلى نفسه : هل يقبلُ سيدنا الشيخ أن يكونَ ذلك الزوج . . . خدمةً لوجهِ الله ؟

وعقدت البغتهُ لسانَ الشيخ ، فلم يُحررْ جواباً ، وانحنى على سُبْحَتِهِ يورى بها حيرته واضطرابه . . . فاستأنف الرجلُ قواه مفصحاً عن مطالبته ، مُأخِضاً في الرجاء والاستعطاف . . . وما زال في إلخافه ، حتى قال الشيخ : أمهاني يوماً . . . سأستخير الله يا « عبد التواب » . فإن كشفت الاستخارة عن خير أجبتك إلى مطبك ، وإلا فمُحَالٌ أن يكونَ ما تريد . . . جِئْنِي غَدًا يَا بُنَيَّ ، والله وليّ التوفيق !

وما إن انتهى الشيخُ من جوابه ، حتى همَّ بالانصراف ، فاستوقفه الرجلُ لحظةً ، ومضى عنه ، ثم رجع إليه ومعه امرأة في عصرِ الشباب ، طيبةُ القسَمات ، بيضاءُ نَفْرَةً . . . فتقدمت من الشيخ في خجل

وخَفَرَ ، فقال لها الرجل : قَبِّلِي يَدَ الشَّيْخِ .

ثم قال للشيخ : هاهي ذى زوجتي المَطْلَمَةَ ...

وما كادت المرأة تنحني على يدِ الشيخ ، حتى جذبَ يده ،
وفرطت منه نظرةٌ إليها ، فلاقَتْ نظرَها ، فغضَّ الشيخ من بصره ،
وقال للرجل : أمضِ بزواجك .

فقبَّل « عبدُ التَّوَابِ » يدَ الشيخ ، داعياً له أن يُجزِلَ اللهُ ثوابه .
وأخذ الشيخُ سَمَّةً إلى داره ، وبيدَ الخطأ ، مُسَبِّلَ العينين ، مَحْنِيَّ
الهامة ، غارقاً في تسيِّحاتٍ عميقة .

وقضى الشيخُ ليلةً هائلةً زحزحتْ بالبهيج من الأحلام ، إذ تراءتْ
له في رياضِ الجنةِ حُورٌ عِينٌ ، وبيدهنَّ من تُشْبِه في ملاحبها تلك
الشابةَ التي أقبلتُ عليه في عصرِ يومه الفاتتِ على استحياء !

وصحى الشيخُ من نومه ، فقبَّلَ الفجرَ ، نشيطاً مجبوراً . فلَمَّا أَدَّى
فريضةَ الصبح ، استخارَ اللهُ في شأنِ ذلك الزواج . . . فلاح له من
الدلائل ما جعله يطمئنُّ إلى القيامِ بهذه المهمة دون حَرَجٍ أو تَثْرِيبٍ .
وجاءه « عبدُ التَّوَابِ » في موعده ، يستجلى نبأَ الاستخارة ،
فأخبره الشيخُ بقبوله ، فأغتبط الرجلُ بذلك ، وانطلق إلى دارِ مطلقته
يدعوها إلى إجراءِ عقدِ الزواجِ بشيخِ الزاوية . . .

وما أسرع أن انتهت مهمة الزواج والطلاق على خير وجه ،
ولكن زوجة « عبد الثواب » خدّمت بعد رحيلها أثر جيلًا في نفس
الشيخ الإمام ، فنقد شعر بعاطفة تستيقظ في قرارة نفسه ، عاطفة خفية
غامضة ، ولكنها تسرى في أوصاله ، فلا يملك معها قراراً ...
وكان طيف تلك المرأة يطرُق الشيخ في منامه ، فيتشكّل له
في صورة حوريةٍ ناصعة البياض تغازلُه وتضاحكه ، فيقطع إليه طرؤباً
جذّالان ، ولكنه إذ يستيقظ يعاجله انقباض ويس ، ويقضي وقته
مبهوماً مكروباً الفؤاد ...

وإنه ليسأل نفسه : ما خطب هذه الأحلام ؟

أتراها رمزاً لحكمة خفيت عليه ؟

أم تراها نغمة من نغرات الشيطان ؟

ولم يكن يسوعفه في حيرته وقفته إلا صوت الهاتف يقول له في

غفواته التي تواتيه أثناء النهار :

طِبْ نَفْسًا يَا « نعيم » ... فاقس عليك من الشيطان سذغان ...

سِرُّ في طريقك الذي سننته لنفسك ، واعمل الخير ما استطعت

إنيه سيلاً !

فيتشبهد الشيخ تشهد الحمد لله ، وما أسرع أن يستنير وجهه

بِشْرًا وارتياحًا ، ثم يقضى بقية يومه على أحسن حال .
وتناقلَ الناس في بلدة « المحاريق » وما جاورها من البلدان أن
الشيخ الإمام تزوج امرأة « عبد التواب » لتَحِلَّ لزوجها من بعده ...
فتوارد عليه أولئك الذين طَلَّقُوا زوجاتهم ثلاثًا ، ثم نَدِمُوا على ما فعلوا ...
تواردوا عليه يبتغون عنده مثل ما ابتغى ذلك الرجل ، تفریحًا لتلك
الضيقة ، وَوَصْلًا لحبل المعاشرة ، وهم مطمئنون إلى قيام الشيخ بهذا
الأمر ، طَيِّبَةً أَنْفُسُهُمْ بِهِ . فكان الشيخ لَا يُخَيِّبُ لَهُمْ هَذَا السُّؤَالَ ،
وَلَا يَرُدُّ تِلْكَ الطَّلِبَةَ ، إِذْ كَانَ قَدْ رَسَخَ فِي اعْتِقَادِهِ أَنَّهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً
مَرْضَاةَ اللَّهِ ، وَتيسيرًا على عباده ... وكيف يزهد في صنيع يلتزم به
شَمْلُ الْأُسْرَى ، وَتتوافرُ بين الأزواج أسبابُ الْوِفَاقِ ؟ !
وترادفتُ الأشهر على شيخ الزاوية ، وهو لَا يَفْرُغُ مِنْ زَوْجِيَّةٍ
حَتَّى تَسْتَقْبَلَهُ زَوْجِيَّةٌ أُخْرَى ... فانتقلتُ ليلياته أعراسًا متوالية ،
وَاصطبغتُ نَفْسُهُ بِصِبْغَةِ جَدِيدَةٍ لَمْ يَكُنْ لَهُ بِهَا عَهْدُ .
لقد أصبح يَمْشِي فِي الطَّرِيقِ مَعْتَدِلَ الْقَامَةِ ، مَرْفُوعَ الْهَامَةِ ،
يَخْتَلِسُ النَّظَرَ إِلَى الْمَلَّاحِ .
ولقد عُنِيَ بِلِحِيته أَيَّمَا عُنَايَةٍ ، فَشَدَّ بِهَا أَحْسَنَ تَشْدِيدٍ ، وَعَالَجَ
مَشْيِيهَا بِالْخَضَابِ أَجْمَلَ عِلَاجٍ ...

ولقد عمَد إلى عمامته ، فبناها مهندمة الوضع ، مستوية الطيات ،
وألف أن يتعطر عملاً بالسنة ، وخلط حديثه بالذكات اللطيفة ،
والضحكات الخفيفة ، يقيناً منه بأن المؤمن طروب .

فأما حديثه في الخطابة فقد خفت ، حتى غدا صوته عذباً
رقيناً ...

وأما سيفه الخشبي فقد استكان في يده ، فلم يعد يلوّح به ذات
اليمين وذات الشمال ...

ويوماً وقف الشيخ أمام الدار يحاورُ بعضَ النسوةِ الذاهبات إلى
الترعة يملأن الجرار ، فقدم على الدار شاب في صحبته امرأة ، وكان ذلك
الشاب مطربشاً من أهل البنادر ، وهو زري الهيئة ، نحيف الجسم ،
يبين على وجهه أنه من نفايات المجتمع ، ومن السادرين الذين
لا تقوم بأمثالهم دعائم البيوت ، ولا تتحقق بهم هناة الأسر .

وما إن وقعت عين الشاب على شيخ الزاوية ، حتى اقترب منه

قائلاً : خدامك « تمهامي » ياسيدنا .

فابتسم الشيخ وهو يقول :

العفويا افندى ... العفو ... ما مسألتك ؟

فأجمل الشاب قصته ، فقد طلق امرأته الطلقاتِ الثلاث ، فأبت عليه زوجته أن تعاشره إلا بعد فتوى الفقهاء ... وقد أفناه أولئك الفقهاء بأنها لا تحل له إلا إن تزوجت رجلاً غيره ... فهو يعرض على شيخ الزاوية أن يكون ذلك الزوج المنشود .

وتفضل الشيخ ، فأعلن قبوله للنهوض بهذه المهمة ، وانصرف الشاب ، تاركاً امرأته « صابحة » في كنف الشيخ إلى حين .

وكانت « صابحة » فتاة موفورة الحظ من الوسامة ، مترنحة الأعطاف من المرح . عاشرت الشيخ بضعة أيام ، فحلت من قلبه أكرم محل ، حتى لقد حرص على أن يقضى معها أطول وقته ، فجعل يتخلف عن الزاوية في بعض الصلوات ، ويقصد الأسواق هنا وهناك ، لينتقى « لصابحة » حلياً وملابس ، ويجلب لها فاكهة وحلوى ...

ووجدت « صابحة » نفسها تتقلب في أعطاف عيش ناعم هنيء ، في كفالة رجل رضى النفس مطواع ، لا كزوجها الشاب الصعلوك الذى كانت معه ... رجل له شمائل لم تأنسها من قبل ، لا كشائل زوجها

الذى لم يكن يُحَسِّنُ إلا الشتمَ والإهانةَ وسوءَ المعاملة... فأُسبغتُ على
الشيخ حنانها ورضاها، وجعلتُ تنفقُهُ إذا غاب، وتتعهدُهُ إذا حضر...
وشعرتُ للحياة الزوجية بعاطفةٍ لم تشعرُ بها قبلَ اليومِ، فكانها
وُلدتُ منذَ الآنَ زوجةً بحقٍّ !

وفي فجرِ يومٍ دخلَ « الشيخ نعيم » على زوجتهِ القديمةِ المقيمةِ
يخبرها بأنه رأى في منامِهِ رؤيا صادقةً، كأنها فَلَقَ الصبحَ... وتعبير
تلكِ الرؤيا أن أمها مريضةٌ على شفاٍ خطرٍ، فعليها أن تتداركَ
الأمرَ، فتنقلَ إليها في بلدِها البعيدِ، قبلَ أن يُحَمَّ القضاءُ . وسيلحقُ
بها بعدَ يومٍ أو يومين ، يدبرُ فيهما أمره .

ولم تَمضِ ساعاتٌ معدودةٌ حتى كانتِ المرأةُ قد تجهَّزَتُ للرحيلِ .
وانصرفتُ أيام... .

وهبَطَ البلدةَ « تهامى » قاصداً بيتَ الشيخ الإمام ، فلما نَمَى إلى
الشيخ مَقْدَمُهُ ا كَفَهَرَ وجهه ، وخرجَ إلى الشابِّ يرغَبُ إليه في إهمالِ
الزوجةِ أياماً تستوفى بها المَدَّةَ المقرَّرةَ .

فانقلبَ الشابُّ إلى بلدِهِ ، يملأُ نفسه الإغتمامِ .

وفي الغداةِ بعثَ الشيخُ رسولهَ إلى الزاويةِ للإخبارِ بمرضِهِ
وبحاجتِهِ إلى الاعتكافِ في الدارِ بضعةَ أيامٍ .

وَلَيْتَ الشَّيْخُ بِجَانِبِ « صَابِحَةَ » يَتَمَلَّى وَسَلَامَتَهَا ، وَيَسْتَمِعُ
بُحْبُوبَتَهَا ، وَقَدْ يُشِيكُ بِهَا مَيْتَابًا بَيْنَ ذِرَاعَيْهِ ، كَأَنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَتَمَعَّهَا
مِنَ الْإِفْلَاتِ ، أَوْ يَحْمِيَهَا مِنْ تَبْقَى اسْتِزْلَافِهَا مِنْهُ . . . ثُمَّ يَتَكَبَّرُ عَلَى
يَدَيْهَا تَقْبِيلًا ، وَالْتِمَعُ مِنْ عَيْنَيْهِ يَتِيمَرُ !

وَفِي شَتْوَةٍ مِنْ شَتَوَاتِهِ هَتَفَ بِهِ الْخَائِفُ قَائِلًا : لَا تُفْرِكْهَا « نَعِيمٌ »
فِي « صَابِحَةَ » . . . لِنَدْوِهِكَ اللَّهُ بِهَا إِتْمَانًا لَهَا مِنْ بَرَأْنِ ذَلِكَ
الذُّبِ الْجَانِعِ . . . إِنَّمَا أَهْلُ لَكَ ، وَأَنْتَ أَهْلُهَا !

وَحَضَرَ « تَهَامِي » يُطَالِبُ الشَّيْخَ الْإِمَامَ أَنْ يَرُدَّ إِلَيْهِ امْرَأَتَهُ ،
وَاحْتَدَّ فِي حَدِيثِهِ مَعَهُ ، فَخَرَجَ الشَّيْخُ مِنْ حِلْمِهِ ، وَصَاحَ بِالشَّابِّ :
أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لَا تَعْجَلْ ! إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ !

وَلَكِنْ « تَهَامِي » لَمْ يَنْهَمْ مِلًّا يَعْنِي الشَّيْخَ بِالصَّبْرِ ، وَقَدْ لَبَّتْ
المرأة عنده أكثر من أسبوعين ، وكان الأجل بضعة أيام .
إلا أنه اضطرَّ إلى امتلاك غضبه ، فترك الشَّيْخَ مُوَلِّدًا إِلَيْهِ أَنْ
يَعُودَ بَعْدَ أُسْبُوعٍ ، لِيَسْتَرِدَّ امْرَأَتَهُ .

وَاتَّقَضَى الْأُسْبُوعَ ، وَالتَقَى الشَّابُّ وَالشَّيْخُ بِيَابِ الزَّاوِيَةِ ، يَوْمَ
الجمعة ، عَقِبَ الصَّلَاةِ . . . فبادره الشَّيْخُ قَائِلًا :
أَحْضَرْتِ أَيْضًا ؟ مَا هَذِهِ الْجَسَارَةُ ؟ !

فَعَجِبَ « تهاى » مما يسمع ، وظلَّ هُنَيْهَةً لَا يَتَكَلَّمُ . ثم اندفع
صائحاً يقول للشيخ :

أَيْنَا الْجَسُورُ ؟ تَقْدَ جِئْتِكَ أَطَابُ بَرْدَ زَوْجَتِي إِلَى .

فَتَرَجَعَ الشَّيْخُ خُطُوبَاتٍ ، وَتَجَمَّعَ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ : مَا الْخَبْرُ ؟
وَسَرَّعَانَ مَا شَعَرَ الشَّيْخُ بِالْحَمِيَّةِ تَدَبَّ فِي أَوْصَالِهِ ، فَالْتَهَبَ
وَجْهَهُ ، وَاعْتَدَلَتْ قَامَتُهُ ، وَانْبَعَثَ مِنْ عَيْنَيْهِ شَوْاطِئُ يَخْتَرِقُ الْحُجُبَ .
وَلَبِثَ الشَّيْخُ يُحَدِّقُ فِي عَيْنِ الشَّمْسِ ، وَيُرْهِفُ السَّمْعَ لِصَوْتِ
الْمُهَاتِفِ ، مُهَيَّباً بِهِ أَنْ يَحْتَفِظَ « بِصَابِحَةِ » الَّتِي وَهَبَهُ اللَّهُ إِيَّاهَا ، إِنْقِاذاً
لَهَا مِنْ بَرَائِثِ ذَلِكَ الذَّنْبِ الْجَائِعِ .

وَتَمَّةً انْتَفَضَ « الشَّيْخُ نَعِيمٌ » انْتِفَاضَةً بَشَرِيَّ وَارْتِيَاخٍ ، وَصَاحَ
مِنْ أَعْمَاقِ قَلْبِهِ قَائِلاً : يَا عِبَادَ اللَّهِ ! . . . يَا عِبَادَ اللَّهِ !

فَتَجَمَّعَ النَّاسُ مِنْ هُنَا وَهِنَاكَ ، وَأَحَاطُوا بِالشَّيْخِ ، وَأَنْصَتُوا لَهُ ،
وَقَدْ خَشَعَتْ مِنْهُمْ الْقُلُوبُ ، وَتَعَلَّقَتْ الْأَنْفَاسُ .

فَقَالَ الشَّيْخُ جَهْوَريَّ الصَّوْتِ : أَتَثِقُونَ بِي أَمْ أَنْتُمْ لَا تَثِقُونَ ؟

فصاحوا صوتاً واحداً : إنا بك واثقون !

فاستأنف قائلاً : لقد هداني الله إلى انقاذِ مُطَلَّقةِ هذا الشاب ،
وحمايتها من شرِّه . . . فهل أعصى أمرَ الله ؟
فقالوا جميعاً : كلا ، بل تَمْضِ على هُدَى من الله !
فابتلع الشيخُ ريقَه وهو يقول : لقد وهبتُ نفسي لصالح المؤمنين
والمؤمنات . . . وليس في مقدوري أن أتجنَّ عن حق الله على ، ولو
كان في ذلك حتْفِي . . . فهل أنا في ذلك ألام ؟
فأجابوه : لا لوَمَ عليك !

فقال لهم وهو يشير إلى الشاب : إذن كُفُّوا عني هذا !
وما كاد الشيخُ يُتمُّ جملته ، حتى أهدقَ الناس « بتهامى »
وأبعدوه عن الزاوية ، وما زالوا به حتى فارقَ البلدة ، وهم يُنذِرُونَه
بالويل إن عاد .

وسار « الشيخ نعيم » ميمماً دارَه ، في جَمْعٍ من الناس ، وهو
يتهادى في مشيته ، تحفُّ به المهابة والجلال . . .

كنسُ الفداء

لم يترك « عبد الخالق » فراشه إلا في الضحوة العالية . . . وكان أبوه قد بارح المنزل مبكراً ، كما هو شأنه كل يوم .

وأخذ « عبد الخالق » يتناول فطوره ، وهو نائر متسخط ، وما لبث أن صدرَ عن المائدة مهرولاً إلى المطهى ، فما إن واجه الجارية « مبروكة » حتى تطاول عليها بالشتم والضرب ، لأنها لم تحبس القط « فلفل » ، إذ لمح شبحه أثناء تناوله الطعام .

ورجع « عبد الخالق » إلى ردهة البيت ، فألقى أمه على مألوف عاديها تجلس على وسادة ، مختمرة بخمارها الأبيض الناصع ، وهي ترتشف قهوة الصباح ، فأخذ مجلسه حياؤها صامتاً عبوس الأسارير ، ثم جعل يتنهد ويزفر ، فأقبلت عليه أمه تلاطف رأسه ، وقالت له وهي تبسم : إني أحزرتُ ما يشغل بالك أيها الماكر !

فأجابها وهو ينأى عنها بجانبه :

ولكنك تَأْبِينُ أن تعينيني على ما أريد . . . لقد استيقنتُ
أنك لا تتوخين راحتي . . . لا تُضْمِرِينَ لِي حَبًّا !
فطوقته بذراعها ، وهي تقول :

أَجْرُوا أن تتفوهَ بِمَثَلِ هذا القولِ يا جاحدَ الجميلِ ؟
— الأمرُ جَلِيٌّ . . . لو كنتِ تحبينني لسعيتِ لِي عندَ أبي حتى
يُبرِمَ الأمرَ الذي تعرفين !

فغضبتِ الأمُّ ، وقد غَضَّتْ من بصرها :
ولكنك تَعْلَمُ يا « عبد الخالق » أن أباك . . .
وأمسكتُ عن الكلام ، متشاغلةً بطرفِ ثوبها تتحسَّسه ، فقال
ابنُها محدِّدُ اللهجة : أَحَافُ لَكَ إِنَّكَ إِذَا لم تُقْنِعِي أَبِي اليَوْمَ يَأْجِزُ هذا
الزواج ، فإني أغادر البيت ، ثم لا تعرفين لِي من أثر .

فَطَفِقَتْ الأمُّ تَحَدِّقُ فِي وَجهِ ابْنِهَا بَعِينَ قَالِقَةً حَيْرَى ، وهممتُ :
أَيُّ كَلامِ هذا يا « عبد الخالق » ؟

— قولٌ فَضْلٌ . . . إِذَا لم تنته مسألة الزواج اليَوْمَ ، فهذا فراق
بيني وبينك . . . سوف أريحكم من وجهي ، وأريح نفسي من هذا
العيش الأُنْكَدِ !

فأخذتِ الأمُّ بيدَ ابْنِهَا تَضْغَطُهَا ، وهي تقول :

ما أقسى قلبك يا بُنَيَّ . . . أيسوع لك أن تفعل هذا ؟
فجذب « عبد الخالق » يده ، وليث يبعث فيما أمامه نظراتٍ
حامية . . .

ولاح شبح القط « فلفل » في رأس الرّذّهة يتمسّح بالباب ،
وهو قَطٌّ حالك السواد ، أملسُ الفَرُو ، كأنه قطعة من ليل برهم ،
يُضِيءُ فيها إشعاع مترجرج يسترسل من فصّين ملوّنين ، هاهنا عيناها .

فما كاد الفتى يقعُ بصره على ذلك الشّبح الطارىء ، حتى عجزَ
إلى خُفٍّ كان على مَدِّ يده ، فرمى القط به ، وهو يصيح :

لن تفلت من يدي أيها القدير المشئوم !
فما أسرع أن قفز القط هاربا ، وهو يمّوء بصوت إشعاع مُزعجِ
النبرات .

ونفض « عبد الخالق » يتأهب للخروج ، فسألته أمّه في ضراعة
وتحنن : إلى أين يا بُنَيَّ ؟

فصاح الفتى يجيبها بقوله : إلى جهنم . . . أتريدن أن تحبسيني
في البيت ، كالقط « فلفل » والجارية « مبروكة » ؟

— وهل منعتك من الخروج يا بُنَيَّ ؟ . . . انصرف فابسط
نفسك وتنزّه .

— ليس في مقدور أحد أن يمنعني من ذلك . . . سأبسط نفسي ،
وسأتنزه . . . أما القطّ « فلفل » فأقسم بالله العظيم لَيَأْتِيَنَّ حَنْفَهَ على
يدي . . . إنه يحيا في هذا البيت يَرْتَع وَيَلْعَب ، كأنه أمير مُرْفَهَ ،
فأما أنا فأحيا فيه كأنى كلب ذليل !

— إنه قط أبيك يا « عبد الخالق » وأنت تعلم أنه أُثِرَ عنده ،
حبيبٌ إليه . . .

فقال الفتى محتدًّا الصوت :

أبي ؟ أتلقَّيْنِه أبا ، وهو ذلك العاتى المستبدُّ الفُشُوم ؟

فنظرت إليه أمه في عَجَبٍ وإشفاق ، وهي تقول خافضة الصوت :

أبهذا تصف أباك ؟ تَأَدَّبُ يا بُنَيَّ !

فبادرها بقوله : لا تتماذى في القول ، فتثيري غضبي عليك .

فهممتُ الأم تقول : هداك الله يا « عبد الخالق » !

ومثل الفتى تُجَاهَ المِراة وهو يصلح من هِنْدَامِه ، ويعاني أن يَفْتِلَ

شاربَه الطَّرِيرِ ، وقد رَنَحَ أعطافَه العُجْبُ بنفسه ، والتباهى بِفُتُوْتِه .

ولما أبلغته المِراة مَأْرَبَه ، استدارَ في وقفته ، يقول لأمه في لهجة

الأمر : عَلَيَّ بِ « ريال » !

فنهدت المرأة ، وتحركت يَمْنَهَ ويسرة ، ثم أخرجت له من تحت

الوسادة ما طلب . فما إن تناول «الريال» حتى رَكَضَ إلى السَّلْمِ يَهِيْطُ
على درجاته في قفزات متواصلة .

فلاحقه صوتُ أمه ، وهي تجأرقائلة : على مَهْلِكٍ يا «عبد الخالق»
الدَّهْلِيْزِ مَظْلَمٍ . . . خُذْ حِذْرَكَ يا بنى . . . حماك الله ونجّاك !

ظهر «عبد الخالق» في الحارة ، وشرع يَخْطُرُ في أرجائها ذُهوياً
وَجِيئَةً ، وهو يتطلّع إلى منزل «أم محمد» الدَّلَالَةَ .
وكان بين الفينة والفينة يبعث من فمه صَفِيْراً يَحَاكِي به لُحْنًا من
الألحان الشائعة ، وهو يَعْبَثُ بسلسلة في يده .

وبعد حين أَهَلَّتْ من منزل «أم محمد» فتاة ضامرة تحتويها
مُلاءة ، وقد تزينتُ زِينَةً رَخِيْصَةً ، وتأنقتُ أُنَاقَةً وَصِيْعَةً .

وما كاد «عبد الخالق» يراها ، حتى تقاصرتُ خُطَاهُ ، وتخالبتُ
على وجهه بَسْمَةً وَهَاجَةً ، ثم أخذ يتنحج ، فإذا بالفتاة تنفرط منها
ضحكة رنانة ، وقد واصلتُ سَيْرَهَا ، كأنها غيرُ مَعْنِيَّةٍ بأمر الفتى
الهِيمَانِ الطَّرُوبِ !

فحثَّ « عبد الخالق » خطاه إليها ، حتى دنا منها ، وقال لها
مُعاذًا : إلى أين يذهب الغزال اللعُوب ؟

فكسرت له الفتاة عينها ، وهي تقول في مداعبة ودلّ :
ما لك وما لي ؟

— عجباً لك يا « فاتنة » ... غداً يكون لي معك شأن أيّ شأن !
ثم أرسل سَعَةً مديدة ، وأتبعها قوله :

سينتهي الأمر عمّا قريب . . . كل شيء يسير وفق المرام .

فلم تُحرِّ الفتاة كلاماً ، كأنما يعصمها الخجل ، وواصل الفتى حديثه
قائلاً : إن هي إلا أيام ، ثم يتمُّ بيننا عقدُ الزواج .

وامتدَّت يده إلى يدها تضغطها في شَفَف ، فتكلفت الفتاة أن
تجذبَ يدها ، وهي تقول :

احتشمُ يا « عبد الخالق » . . . ألا تخشى أن يرانا أحد ؟

— مِمَّ أخشى ؟ وهل في هذا العمل ما يُعاب ؟ ألم أقل لك إنك

ستكونين لي زوجاً ؟

فأجابته في صوت لَيِّن المَكاسير : وهل تمَّ كل شيء ؟

فقال الفتى : ستزوركم أمي غداً لتخطبك لي . . .

— وهل علم أبوك بالأمر ؟

— علم أو لم يعلم . . . المسألة تتعلق بي .
فكسّت الفتاة رأسها ، وقالت وهي تَعْبَثُ بِأُظْفَارِهَا :
أخشى أن يحول أبوك بينك وبين ما تريد .
فردّ عليها في عزّة وكبرياء : هيهات له أن يفعل ذلك !
فألقت عليه نظرة أسف وخوف ، فاختلج الفتى غيضاً ، ثم اندفع
يقول لها في لهجة حاسمة :

لا تحسبي حساباً لغيري . . . أمرى كله في يدي !
وكان الفتى والفتاة قد بلغا رأس الطريق العامّ ، فافترقا .
وركبت « فائقة » الترام . . . فأما « عبد الخالق » فقد عبّر الشارع
وسار مطرق الرأس ، ضيق النفس ، يستبدُّ به التفكير .
وبينا هو في مسيره ، إذ شعر بيد تلاطف كتفه ، فالتفت يتبين
الأمر ، فإذا بصاحبه « دسوقي » يقول مفترّ الثغر :

ما هذه السّخنة المقلوبة يا « عبد الخالق » ؟ في أيّ شيء تفكر ؟
— . . . لا شيء !

— مَنْ يراك على هذه الحال يكاد يُنكرُك . . . عاشق أنت

أم مفارق ؟

— لا أنا عاشق ولا أنا مفارق .

فأشرع « دسوقي » إلى صاحبه نظراتٍ نفاذة ، ثم قال له :

ما الجديدُ في شأنِ البنتِ « فائقة » ؟

فوجمَّ « عبدُ الخالق » لحظات ، وأجاب ساهما :

دَعْنَا مِنْ هَذَا الْمَوْضُوعِ .

— أأخَرَّ زَوَاجِكَا تَدِيرُ الْمَالِ الْمَطْلُوبِ ؟

— الْمَالِ لَا يُعَوِّزُنِي يَا « دَسُوقِي » . وَالذِّي تَكْفُلُ لِي كُلَّ شَيْءٍ .

ولكن ...

— إِذْنِ لَيْسَ فِي الْمَسْأَلَةِ إِلَّا أَنْ يَرْضَى أَبُوكَ .

فخَفَضَ « عبدُ الخالق » رَأْسَهُ ، وَأَخَذَ يَدِيرُ سِلْسِلَتَهُ مَهْتَاجَ

الْأَعْصَابِ .

وَاسْتَأْنَفَ « دَسُوقِي » قَوْلَهُ : الْحَقُّ أَنَّ أَبَاكَ جَاوَزَ الْحَدَّ . . . كُنْ

شَجَاعًا فِي مَخَاطَبَتِهِ ، وَافْرِضْ رَأْيَكَ . . . لَمْ تَبْقَ طِفْلًا !

فَرَفَعَ « عبدُ الخالق » رَأْسَهُ ، وَقَدْ تَضَرَّمَتْ عَيْنَاهُ ، وَطَفِقَ يَجْمِجِمُ

وَهُوَ حَائِرٌ قَلِقٌ .

فَبَاغَتْهُ صَاحِبُهُ بِقَوْلِهِ : أَتَعْرِفُ مِنَ الذِّي يَحْرِضُ أَبَاكَ عَلَيْكَ ؟

— مَنْ ؟

— « الْأَسْطَى بِيَوْمِي » الْحَلَّاقُ . . .

فانطلقت من فم « عبد الخالق » صيحة حنق ، وهو يقول :

الوَغْدُ . . . الدنئ . . . لن يُفْلِتَ من يدي !

— ما قولك في الترسد له الليلة ، وإشباعه ضرباً ؟

— فكرة موقفة .

— سأجمع الصّحابَ هذا المساء ، ثم ننتظره في منقطع الطريق ،

وهو في مآبه إلى داره .

وتابع الصديقان سيرهما ، وهما يتجاذبان الحديثَ في تدبير الخطة

بصوت مخفوض .

وانقضى يومان لم يفتُرْ فيهما « عبد الخالق » عن محاصرة أمه ،

والإلحاح عليها ، لكي يحملها على أن تفتحَ أباه في شأنِ زواجه

المنشود .

واضطرتُّ الأم أن تنصاعَ لرغبةِ الفتى ، فوعدهتُه بأن تفاوضَ

الليلةَ أباه .

وبينما كان الفتى وأمه جالسين على الوسائد بعد العشاء ، إذ تناهى

إلى سمعها صريرُ الباب ، وخفقُ القدم . . . فعلمَا من الطارق .

وتعالى صوت « محبوب افندى » يسبُّ الجارية « مبروكة »
لإهمالها تنظيف الدهليز .

فالت الأم على ابنتها هامسة :

يبدو على أبيك الليلة أنه ليس بصافى المزاج !

فعمَّ بَ عليها الفتى محتدَّ الأهجة :

لا يَمِينِي أن يكونَ صافىَ المزاجِ أو لا يكونَ . . . لا بدَّ الليلةَ

أن تنتهى مسألة الزواج !

وهنا كان « محبوب افندى » قد صعد الدَّرَج ، وهو يزمرم

ويججم ، والقطَّ « فلان » يتمسَّح بثيابه ، فاما بلغ الرجلُ رَدَّهَةً

البيت وقع بصره على ابنه « عبد الخالق » ، فأخذ يحدِّجُه بنظرانه ،

وهو يحاول أن يتناولَ بقامته القصيرة ، ويتنفَّخَ بجسمه المتضائل .

وصاح بالفتى قائلاً :

كيف جرَّوتَ أن تضربَ « الأسطى بيومى » يا وُلد ؟

فأراد الفتى أن يتحدَّى سطوة أبيه ، وأن يغالبَ نظرانه ؛ ولكن

ما كادت أعينُهما تتلاقى ، حتى كسَّر الفتى من بصره ، وقال مستكيناً

الصوت : لم يحدثْ ذلك والله العظيم !

— بعداً لك من كاذبٍ أئيم . . . أجِبنِي : كيف جرَّوتَ أن

تضرب « الأسطى بيومى » ؟ انطق وإلا تركتكَ فقدَ النطق .

— أقسم برأسك العالى إني برىء !

— لقد كنتَ فى عُصبة من الأشرار ، بينهم « دسوقى » ذلك

الولد الفاجر الذى حرمتُ عليك أن تكونَ لك به صلاة . . . لقد

ترصدتُهم « للأسطى بيومى » فى منتهى الطريق .

— كذبتك من بئفك يا أبى !

— أخرس يا ولد . . . فأنت الكذوب !

واقتربت الأم من زوجها ، على فمها ابتسامة ذليلة ، وقالت :

سكن من روعك يا « محبوب افندى » . . . الولد جاهل

لا يحسن الكلام . . . ربما كان مظلوما . . . تعال فاجلس أهبيء

لك قدحاً من الشاى ، فأنت الآن محتاج إلى هدوء البال .

وتضاحكت الزوجة ، تعالج الترفيه عن الأب المغضب . فنظر

الرجل إليها نظرة استخفاف ، وقال لها :

لست أدرى ماذا تقصدين ؟ أتبعين أن أغضى على تلك الأعمال

السيئة التى يقترفها ابنك مع الناس ؟

فأجابته الأم : لست أريد منك أن تغضى ، ولكن على رسلك ،

ولتكن حليماً . وليس « عبد الخالق » بأول ولد تنزلق قدمه في هذه الأعمال الصبّانية .

— هكذا أنتِ تعملين على تهوين ما يرتكبه هذا الولد ، فتشجّعينه على أن يفعل ما يهوى . . .

فالت الزوجة على كتف « محبوب أفندي » تلاطفه متخاضعة متفننة في تسكين غضبه ، وهي مسترساة تقول :

أنت في كلامك مُحِقّ . أنا التي أخطأت . ولكنك تعلم قلب الأم . . . و « عبد الخالق » مهما يكن من أمره فتى طيب السريرة ، ولعل ما بلغك في شأنه وشاية من أهل السوء ! . . . تعال اجلس ، وروِّقْ بالك . سأذهب لأصنع لك الشاي بنفسى .

وهُرِعَتُ الأم إلى المطهى ، و « عبد الخالق » يتبع خطاها . وأخذ « محبوب أفندي » مجلسه على الوسائد ، وانكفاً على سُبْحَتِهِ يداولُ حَبَاتِهَا بين أصابعه .

ورجعت الزوجة تحمل قدح الشاي المعطر ، وقدّمته إلى الرجل ، وهي تقول في تضاحك :

أقسم برأسك الغالى إنه ليس في مصر كلها من يستطيع أن يصنع قدحا من الشاي مثل هذا القدح . . . اشربه ، وطب نفساً به !

ونظرت إليه تستجديه البشر والإبتسام ، فلوى عنها عنقه ، وظل
منكفئاً على سُبْحته .

ولاح في أقصى الرّْدْهَة « عبد الخالق » يستخبر الحال .
وعمّ الرّْدْهَة صَمْتٌ مُطْبِقٌ ، لم يكن يقطعه إلا صوت ارتشاف
الشاي ، وبعضُ تنهدات تبعثها الأم بين حين وحين ، وهي تبادل
ابنها النظر في خُفْيَةٍ وحِذَارٍ .

وبعد فترة مدّت المرأة يدها في تَلَطّفٍ ، تَدْلُكُ قدمي زوجها
المكدود ، وقالت في صوت متخافت ، وبصر زائغ : لى عندك رجاء !
فأجابها الرجل ، وهو يئنأى عنها بجانبه : أى رجاء لك ؟
— عِدْنِي أَوْلَا أَنْ تَسْتَجِيبَ لَهُ .

— عجيب أمرُك . . . أخبريني لأعرفَ ماذا تريدان ؟
فانكبت المرأة على ركبته تقبلها مهتاجة ، وهي تقول :
اصنعُ معروفًا معي ، واستجبْ لرجائي .

فقال لها الرجل ، وهو يتباعد عنها :

أفصحي . . . أفصحي عما في نفسك !

فرفعت إليه المرأة عينين خضلتهما الدمع ، وقالت في صوت
منتقطع : أريد أن أفرحَ « بعبد الخالق » . . .

فخلق الرجلُ ، وقد أزهرتُ عيناه ، وقال :

تفرحين « بعبد الخالق » . . . بهذا الولدِ الخائبِ ؟ !

فتشبثتُ المرأةُ بثوبه تقول : اصنعُ معروفًا معي . . . لا أطلبُ

منك إلا كلمةَ القبول . . . واترك ما بقيَ أدبره بنفسى .

فلم يُحرِّ زوجُها من جواب ، وطَفِقَ يداعِبُ حَبَّاتِ السُّبْحَةِ

بأصابعِ جَيَّاشَةٍ ، وواصلتُ الزوجةُ قولها في لهجة استعطاف وتذلل :

أشتهى أن أرى حفيداً لى . . . أتمتع به قبل أن تحينَ مَنِّي . . .

أضمه إلى صدرى . . . يملأ البيتَ أنسا وبهجة !

فتنحرح « محبوب أفندى » وطال تدنجه ، دون أن يندس .

ولما تمادى الصمتُ بين الزوجين ، شرعت المرأة تقول ، وهى

ناكسة الرأس ، تدعك إحدى يديها بالأخرى فى إلحاح :

إنها بنت يتيمة مسكينة . . . وأهلها من جيراننا ومعارفنا الذين

اتصلوا بنا من عهد بعيد .

فصعد الرجل نظره وصوبه ، وعلى فمه تتخايل بسمة استخفاف .

ثم قال :

أحسبك تعنينَ بنتَ « أم محمد » الدلالة . . . البنت التى تظهر

فى الشارع بالأبيض والأحمر ، وتتعوَّج فى مشيتها مثل الراقصات !

فنظرتُ إليه زوجةً نظرة عتاب ، وقالت :

« فائقة » بنت « أم محمد » . . . لا عيبَ فيها . . . بنتٌ

طيبة عاقلة !

— ما أحسنَ اختيارك العظيم . . . تبغين أن تخطبي لابنك

إحدى بنات الشوارع ؟ ! . . . أقسم بالله إن هذا الولد لن يرى يومَ

هناءة وسعادة ، مادمتِ تساعدينه على هذا الشرِّ .

فأحسَّ « عبد الخالق » بغتةً بأن ناراً تتضرم في رأسه ، وأن عينيه

قد اكتستا صبغة حمراء ، فصرخ وجسمه تزلزله رعدة :

يمينا إني لن أرى لحظة راحة ، مادمتِ أنتَ عقبةً في طريقي !

فأنفذَ « محبوب افندى » بصره إلى مكان ابنه ، وقد اختلط

عليه الأمر ، لا يكاد يصدّق أن « عبد الخالق » يعنيه بهذا المنكر

من القول .

ثم صاح : ماذا قلتِ يا كلب ؟

ولبثتُ الأم حَيْرَى ، تنقلُ بصرها بين ابنها وزوجها ، وقد غَشِيَهَا

شُحوب ، وسرَى في أوصالها تخاذل وفتور .

وقالتُ لابنها بصوت كأنه النسيج :

هذا عيب منك يا « عبد الخالق » . إن من يكلمك أبوك !

فقال الفتى بصوت تتجاوبُ أصداؤه في أرجاء الردهة :

لا أعرف من تسمينه أبي !

وما عتَمَ أن التفتَ نحو أبيه يقول : سأ تزوج « فائقة » . . .

رضيتَ أو لم ترَضِ . . . لم أبقَ طفلاً حتى تتحكّم في أهوائى !

وفي هذه اللحظة دَرَجَ القَطُّ « فلفل » إلى الردهة حتى توسّطها ،

وكأنه أحسَّ بأن غيوماً تتلبّد في جوّ المكان ، فجعل يرأري بعينه

حواله ، وقد ارتفع ذيله ، وانفش شعره .

وطَفِقَ الرجل يتقلّب على الوِسادة ، يحاول أن يمتلك زمامَ

موقفه ، وقال مهمهما : أين عصاى ؟ ايتونى بها . . .

ثم نهض قائماً ، وهمَّ بأن يأخذ طريقه إلى ناحية ابنه ، فأسرعتْ

الأم تحوّل بين زوجها وبين الإنطلاق . ولكنها لم تُفْلِح ، وابتدأت

المعركة بين الولد وأبيه ، فأقحمتْ الأم نفسها ، وتلقّت أوفر الضربات ،

وما زالت « بعبد الخالق » حتى نَحَّتْهُ إلى الباب ، تاركةً أباه يتابع

زجرته وهديره .

وكان الولد يحاول الإفلات من أمه ، ويدير بصره يمنة ويسرة ،

فالتقت عينه بالقَطِّ « فلفل » ، وماهى إلا أن انكبَّ عليه ، وأمسك

به يُنْشِبُ أظفاره في عنقه ، والقَطُّ يَعْوِي ، ويدفع عن نفسه بمخالبه
وأنيابه . وخرج الولدُ به وهو على هذه الحال هائجاً ماُجْجاً يَهْبِطُ
الدَّرَجَ .

فاختلج الأب اختلاجة غيظ وحنق ، وهمّ أن يُلْحَقَ بابنه ،
ليستنقذَ قِطَّةَ الألوف ، وليثأرَ له . . . فوقفت الأم تعترض طريقه ،
وتقسم عليه ألاّ يخطو خطوة ، وهي تقول :

أَقْصِرِ الشَّرَّ . . . احمَدِ الله على أن الأمر انتهى عند هذا الحدّ !
فلبثَ الأب يحاولُ الخروج ، والأم تردُّه ، على حين كان مُواء
القَطُّ يتواصل ، كأنه أُنِينٌ مُحْتَضِرٌ . . .

obeykandi.com



ضَرْبُ الْحَبِيبِ

المنزل الأخير في « زُقاق المُحْتَسِبِ » بِحَيِّ « الحمزاوى » مَبْنَى عتيق ، تداعت أركانه ، وتخرّبت جوانبه ، ولكن ما برحت بعض معالمه تنطق بما كان له من مكانة في العصر القديم ، بين باذخات الدُّور والقصور . . .

ولقد شُيِّدَ المنزل يوم شُيِّدَ ليكون مُقاماً مستقلاً لأسرة كريمة سرية تغيرت بها الأحوال ، وتَحَيَّفَتْهَا الأحداث ، حتى اضطرت في يومها الراهن أن تقنع من المنزل بغرفاتٍ في طبقته العليا ، لكي يتاح لها أن تؤجّر سائر طبقاته وغرفاته لأشتات السُّكَّان ، فيكون لها من ذلك دخل تستعين به على أعباء العيش ، وتكاليف الحياة .

ولست هذه الأسرة إلا زوجين محطّمين علاهما الكبر ، وابناً لها يدعى « يوسف » في شرح الشباب ، يقطع مرحلة التعليم الثانوى .

وكان « يوسف » هذا يزهو بوسامته ، ويحتفي بزينته ، لا تراه

في المنزل إلا متخبطاً يتمثل في نظراته الإعتزاز . وكيف لا يتعالى على بقية السكان ، وهو يعرف أنه سليل الأجداد من أصحاب هذا البيت العتيق ؟

ومن بين سكان هذا المنزل أرملة تدعى « أم حسن » تتكسب بحياكة الأثواب ، وتصيب منها رزقاً حسناً . وهي امرأة ليست موفورة الحظ من جمال المحيا ، ولكنها تبدو دائماً متبرجة مكتملة الزينة والتعطر ، تعرف من عينيها أنها من ذوات الصباة اللواتي تحفل حياتهن بالمغامرات

وهناك في الجانب الخرب من المنزل حجرة متهدمة أشبه بالجحر ، تؤوى جدةً ضريرة معها حفيدتها « بدرية » . . . فتاة في ريق العمر ، ترهقها غبرة الفاقة والكد ، ولكنك تستشف وراء ذلك القناع سمات من فتنة وحسن ، كما تأنس ابتسامة القمر خلف غلائل الغيوم

وكانت حياة هذه الفتاة نهياً مقسماً بين القيام على شئون جدتها العجوز ، والتنقل في مساكن المنزل أجيوة تخدم .

وغدوةً صعِدت « بدرية » إلى الشقة التي يسكنها ملاك الدار ، فما أسرع أن تجلّي الفتى « يوسف » على عتبة الباب وهو متأهب للذهاب

إلى المدرسة . ولما رأى الفتاة قبالة بشّ لها ، وقال :
أهذه أنتِ يا « بدرية » ؟ . . . مصادفةً حسنة . . . كانت
أُمِّي تذكركِ الساعة .

— أطلبتني هي ؟

— إنها ملازمة الفراش ، منذُ البارحة ، وليس بجانبها من يكون
لها عوناً .

— سلّمها الله .

وتحركت الفتاةُ أمام الباب تريد الدخول ، فاعترضها الفتى يأخذُ
عليها الطريق ، وهو يتسمّى في مداعبة ، ويقول :
تقدّمي . . . ماذا يبطن بك ؟

فصرّح الخجلُ وجهَ الفتاة ، وقالت متلعثمةً خافضةً البصرَ :
عجيبٌ أمرُك يا « يوسف افندي » . . . لم هذه المعاكسة ؟
فجعل الفتى يهتزّ طروبَ النفس ، وأجابها في صوت مُنعمٍ :
ألا تعرفين يا « بدرية » لماذا أعاكسك ؟

فاعتلت الفتاةُ برأسها ، فإذا هي تُلاقِي نظراتِ « يوسف » متلهبةً
عاطشي ، فزادها ذلك من حيرة واضطراب ، واغتتم الفتى تلك الفرصة ،
فأهوَى عليها يعتصب منها قبلة شقيقة ، فانبعثت الفتاةُ نائرةً تردُّ عنها

ذلك المقتحم الجريء ، فدفعته بكلتا يديها دفعةً أسقطته ، وعجلت
إلى الباب . . .

ونهض الفتى من عثرته مُخَنَّقَ الصدر ، يجمع كراساته ، وَيَلْمُ
شَعَثَهُ ، وهو يبههم :

لو لم تكن أمى مريضةً لعرفتُ الآنَ كيفَ أربِّيكِ أيتها الحمقاء !
وهبط السلم متشامخاً يتوعد ، وبلغ في مهبطه شقَّةً « أم حسن »
الأرملة الخيَّاطة ، فألفاها لدى الباب تسأله في تخابث :

صباح الخير يا « يوسف افندى » . . . هَلَّا أخبرتني كم الساعة
الآن ؟

فأجابها وهو يهيمُ بمتابعة السير : أوفتُ الساعةُ على الثامنة .

وحملتُ المرأةُ فيه ، قائلةً له في دهشة :

ما هذا يا « يوسف افندى » ؟

— أى شيء تقصدين ؟

— أخرج إلى الشارع وأنت على هذه الحال ؟

— أية حال ؟

— سترتك ممزقة . . .

— أنا ؟

فتلوت المرأة ضاحكةً في دلال ممقوت ، وقالت :

بل سُترتي أنا . . .

ودعته إلى دخول مسكنها ، وما أسرع أن أقبلت على السترة

ترتق ما جدَّ فيها من فتوق ، وهي تقول :

ما خطبُ هذا التمزيق ؟

فقال لها الفتى ، وهو يعالج التخلص من مجاذبتها الحديث :

أرجو منك أن تفرغني من الرتق ، فقد أبطأت عن المدرسة .

فكسرت له المرأة عينها ، وقالت له في لهجة ماكرة :

وماذا أبطأ بك اليوم يا « يوسف افندى » ؟

فأزاع الفتى بصره عنها ، وهينم : شغلتني بعض الشئون .

فصوبت المرأة إليه أنظارها تنفخه ، ثم همست في أذنه :

إنها فتاة وضيعة . . . لا يليقُ بك أن تقيم لها وزناً .

فتشاغل الفتى بترتيب أوراقه ، وقال : دعيك من هذا الكلام .

فتدانت منه المرأة تلاطف كتفه ، وهي تههم :

يا لها من شريرة شغوب . . . أصابك سوء من هذه السقطة ؟ لقد

استطار قلبي من أجلك !

فاشتد الضيقُ بالفتى ، وقال لها :

ألم يَنْتَه الرَّتْقُ بعدُ ؟ أرجوكِ يا ستّ « أم حسن » ...
أرجوكِ !

وأحسنّ الفتى بذراعها تطوّقُ خَصْرَه ، وبأنفاسها تتلاحقُ عليه ،
فناهى بجانبه عنها ، وانطلق راكضاً يقول :
أشكرك ... سَعِدَ صباحُك !

وتَبِعَتْهُ الأرملةُ إلى الباب ، ولبثتْ تُرَقِبُ شَبَحَه وهو يهبطُ
الدَّرَج إلى الطريق .

وفيا هي على هذه الحال ، سمعتْ خَفَقَ أقدام من أعلى السُّلَم ،
فأشرعتْ عينيها ، فإذا هي ترى « بدرية » هابطةً على مهل ،
فوقفتْ تنتظرها ، وقد تَنَمَّرَتْ عيناها . وما إن اقتربتْ الفتاةُ منها
حتى رمتها الأرملةُ بنظراتٍ تَنَلَّظَى ، وخطتْ نحوها تقول في حِدَّة :
لقد جمعتُ الأقدار في الصفائح ، وأنت في شُغل عنها . فتى
تتفضّلين بحملها ؟ أنتنظرين حتى أقذِفَ بها في وجهك ، أو أصبّها على
رأسك ؟ ... أراكِ مصروفةً إلى المشاجرة وإقلاقِ راحة الناس ،
فأما عملك الذي تتقوّتين به فلا يقعُ منك ببال ... مالكِ و« ليوسف
افندى » ؟ ... خير لكِ أن تُغرِّبِي عن وجه هذا الفتى ، وإلا كان
ملك الوَيْل !

ففظرت إليها الفتاة حائرة مضطربة ، تقول :

لا شأن لي « يوسف افندى » أو غيره . . . إنه عندك فاطمئني به .

فجَنَحَتْ لها الأرملةُ يديها ، وكأَنَّما مَسَّها شيطان ، وقالت للفتاة :

ما أطولَ لسانكِ أيتها الوَحيحة . . . ماذا تريدِينَ أن تقولِي ؟

أَتظنِينَ أنى أنافِسُك فيه ؟ من تكونِينَ أنتِ حتى يكونَ بيني وبينكِ

منافسة ؟ ألا تعلمِينَ شَأنَكَ في هذه الدار ؟ خير لكِ أن تَشغَلِي نَفْسَكَ

بتنظيف المساكن ، وحمل الكُناسات !

واسترسلت الأرملةُ تُطَنِّبُ في الشتم والتفريع ، على حين تابعتُ

الفتاةُ مَهْبِطَةً ، غيرَ معنِيَّة بالردِّ على ما تسمع من مردول النعوت

والأوصاف .

وبلغت الفتاةُ حَجَرَتَهَا ، فألقت جَدَّتَها كما تركتها تَفْطُ في

نومها ، فالتبذت ركنًا من الحجرة ، وألقت رأسها بين يديها ،

ولبثتُ تفكر فيما كان من شأنها مع الفتى « يوسف » والأرملةُ

« أم حسن » .

وبينا هي تغالب مختلف المشاعر ، إذ أحستُ بالدمع ينفِرُ من

مآقيها ، حتى إنها لم تَمَلِكْ أن تردَّ ذلك الشهيق الذي استبدَّ بها ينافس

غَطِيطَ جَدَّتَها العجوز .

وأخيراً أفاقتُ من نوبة النحيب ، وقد عاودت نفسها شياً من
السكينة والقرار ، فنهضتُ تصلح من شأنها ، وخرجتُ تستأنف سعيها
الذي ألفتَه كلَّ يوم في سبيل القوت .

ولما طلبتُ النومَ في عَشِيَّةِ ذلك اليوم ، لم يستجب لها ، وظلت
أرقة قَلِقَةً ، كأنها تتقلبُ على الشوك ، وهي في مُلتَطَمٍ من الأفكار
والمشاعر لا تجدُ منه مَنجاةً ...

بجز الفتى حَدَّ المألوف حين هفَّتْ نفسه إلى تقبيلها ؟ أقستُ
هي عليه ، إذ دفعته فأسقطته دون إشفاق ؟ ألم يكن أحمجى بها أن تردّه
عنها في رِقَّة وذوق ، وألا تتجاوز الحدَّ في الصدِّ والردِّ ؟ وما بال هذه
الأرملة البغيضة تُقجمُ نفسها في شتات فتاها ، فتنبهى للدفاع عنه
بلا مُسوِّغ ؟ ...

وكان وجه الفتى « يوسف » يُلوح لها وهي على هذه الحال
متباين الأوضاع والصُّور ، فتارةً هو عبوس كالح ، وحيناً هو مشرق
بسَّام ... وهو في كل حالة من أحواله يلاحقها ولا يفتأ يلاحقها ،
حتى إنها لتُخفي رأسها بين الوسائد ، كأنما تهزُّب من طيفه
اللجوج !

وطوّحَتْ بِهَا الْأَفْكَارَ وَالصُّوَرَ ، وظلت ترمي بها الرّامى ،
حتى أسلمتها إلى وادى الأحلام .

وانصرفت أيام ، والفتاة تراجع مألوفَ هديرها رويدا ، وقد بنت
عزمها على أن تتنكبَّ عن سُكَّانِ هذه الدار جميعاً ، وبخاصّةٍ مسكنُ
الفتى « يوسف » والأرملة الشُّعوب ...

وفي أصيل يوم وافقتُ صاحبَ الدار عن كُتْبِ من الباب ، وهو
متوكّيء على عصاه ، يكافح ضعفه واعتلاله ، فما إن لحها حتى أطلق
صوته يناديها ، فتصامتُ عنه ، فكررَ النداء ، فلم تجد مَفيضاً من
التلبية ، فواجهها بقوله :

ما هذا يا « بدرية » ؟ كيف سَوَّلَتْ لِكَ نَفْسِكَ أَنْ تَتَخَلَّفِي عَنَّا ؟
لقد سألنا عنك ، وانتظرنا حضورك ، فماذا أبطأ بِكِ ؟
فأجابته وهي خافضة البصر :

المعذرة ... فإني كثيرة الشواغل ، وجدّتي مريضة .

فقال لها الرجل :

ألا تعلمين أن « أم يوسف » هي الأخرى مريضة لا تريمُ

الفراش ؟ ... إنها تطلب أن تراكِ ، فاعجلى إليها .

فهممت الفتاة تَعِدُّهُ أن تزورها بعد قليل . فتركها الرجل يتحامل على عصاه ، ويقتلع قدميه . ووقفت الفتاة في مدخل الدار شاردة النظرات فَتْرَةً ، تسائل نفسها :

أَتَنِي بوعدها ؟ أم تظانُّ على حالها تتجنبُّ هؤلاء الناس ؟
وانتهى بها الأمر إلى أن اعتزمت ألا تصعدَ إلى مسكن صاحب الدار . وفيما هي على وَشِكِ المِضِيِّ ، تواترت على سمعها أصوات مختلطة تتناثر من جانب السلم . قالفت رجليها تقفان ، وأذنيها تصغيان ، تحاول تعرفَ الأصوات ، وتمييزَ بعضها من بعض ، وقد أحست أوصالها تختلج . وإذا هي تدلِّف في حِذَارٍ ومساترة ، وتتابعُ الإنصات ، ليتسنى لها أن تتصيّد ما يشيع من أصوات .

كانت « أم حسن » وقتئذ بباب مسكنها ، تعابثُ الفتى « يوسف » وتضحكه وتجاذبه الأفاكية ، فتسمرت الفتاة في موقفها مهتاجةً تتساقط إليها تلك الكأسُ المريرة قطراتٍ ، فتتجرّعها على غضاضتها ، يدفعها إلى ذلك دافع نفسي لا قبلَ لها بأن تردّه .

وبغتهً أحست الفتاة بأن باعثاً يزجُّ خطاها خارج الباب ، فهُرِّعَتْ إلى حجرتها ، وشرعت تستبدل بثوبها ثوباً آخرَ أنظفَ وأزهى ، ثم أخذت زينتها ، وما إن اطمانت إلى أنها بلغت مأربها مما

تريد ، حتى خرجت من الحجرة قاصدةً مَدْخَلَ السِّلْمِ تُرهِفُ السَّمْعَ ،
فَلَمْ تَلَقَ هُنَاكَ إِلَّا صَمْتًا شَامِلًا . . .

وما أسرع أن جعلت ترتقي الدَّرَجَ ، تحدوها فكرة جامحة . وما
بلغت في مُرْتَقَاهَا شِقَّةَ « أم حسن » تمهلت رويداً تتسمع ، فتناهت
إليها أحاديث الأرملة مع عاملاتها الأجيريات تأمر وتنهى !

فحَتَّ الفتاةُ قدميها إلى شِقَّةِ صاحب الدار ، وقرعت الباب
جَيَّاشَةً المشاعر ، وما هي إلا أن انفرج البابُ عن الفتى « يوسف »
ففاجأه مرأى الفتاة ، ولكنه تمالك واستجمع ، وراح يحدِّجها بنظرات
حدَادٍ ، وقد حضرته حادثةُ الأمس حين لَقِيَ من هذه الفتاة مَهَانَةً
جرحت كبرياءه وعِزَّتَه . ثم افتَرَّ ثغرُه عن ابتسامة كريمة ، وهو
يقول عابثاً بسلسلة المفاتيح في يده : ماذا جاء بكِ يا ست « بدرية » ؟
فأجابته من فورها في لهجة يشيع فيها الاضطراب ، محاولةً أن
تَضْبِطَ عواطفها ، وهي تُزِيغُ عنه البَصَرَ :

جئتُ أزورُ والدتك . . . علمتُ أنها مريضة !

فتضحك الفتى في هُزُوٍ وسخرية ، وقال :

حقاً إن قلبك مملوء بالخير . . . نحن في غِنَى عن خدماتك !

فبرقت عين الفتاة ، وقالت :

أىُّ شأنٍ لكِ بخدماتي؟ إني أحضُرُ من أجل والدتك، وقد طلب
منى والدك أن أصعد إليها... دَعْنِي وشأني، وافرُغِ أنتَ لمسائلك
التي تشغلُ بالك!

— أىُّ مسائلٍ تقصدين؟

فاندفعتُ صائحة:

سَلْ صاحبتك «أمَّ حسن»... انظر ماذا كنتَ تصنعُ معهما منذ هنيهة!

فحققه الفتى مواصلاً العبثَ بسلسلة المفاتيح، وقال:

«أمَّ حسن»... إنها سيِّدةٌ ولا كالسيدات!

فاشدَّ احتياجُ الفتاة، وهي تقول:

أيةُ سيِّدةٍ هذه العجوزُ الشوهاءُ التي تلاحقُ الشَّبَّانَ؟

— بل إنها سيِّدةٌ تعرفُ الذوقَ، وتحسنُ الأدبَ، وتقدرُ

مقاماتِ...
مقاماتِ...

— وهل لهذه المرأةِ مقام؟

— عجيبٌ أمرُك... أجبَّتِ الآنَ لتناقشيني في شأنِ «أمَّ حسن»؟

— قلتُ لكِ جئتُ لألتي والدتك، فافسحْ لى.

— لا أسمحُ لفتاةٍ مثلكِ أن تطأَّ عتبةَ الباب...
...
— ما ذا كان منى حتى تحرمَّ على الدخول؟

- هل نسيتِ إساءتكِ إليّ؟
- وهل أسأتُ إليكِ؟ إني لا أسيءُ إلى أحدٍ!
- أتتكِرين ما جرى منكِ؟
- أنتَ الذي ضايقتني .
- وإذا كررتُ معكِ ما صنعتُ بالأمس؟ . . .
- إذن فلا أحجم عن حماية نفسي .
- اغرُبي عن وجهي .
- ليس هذا بيتكِ !
- وهَمَّتْ الفتاةُ باقتحام الباب ، فأمسكَ بها يحاول إقصاءها ، وهي
تعالج التفاتَ منه باديةً بدء ، فإذا هو يضبطُها بين ذراعيه ، وإذا بهما
كأنهما يلتحمان . . .
- ومضتُ على ذلك فترةً صمت ، لا تدرى :
- أفترةٌ عِرَالِكِ هي؟ أم موقفٌ عِناقٍ؟!
- ووجدتُ الفتاةَ نفسها قد أجهشتُ بالبكاء ، وأخذت تصيح
- قائلة :

لا تفخرْ بالتغابُّ على فتاةٍ مثلي . . . أترُكيني!

— لن أترُككِ حتى أروضك وأخضعك أيتها الشرسة !
واختلجت الفتاة بين يديه ، تريد الإِنطلاقَ ، فشدَّ عليها وعنفَ
بها لَكَزاً ووَكَزاً ، فحارتْ عزيمةُ الفتاة ، ولم تَعُدْ تدفعه عنها ، بل
لقد جعلتْ تتشبَّثُ بكتفيه ، كأنها تخشى أن يُفِلتَ من بين يديها !
وكفَّ الفتى عن اللَكَزِ والوَكَزِ ، وما برحتْ الفتاةُ متشبَّثةً به
تنتحب ، فأخذ برأسها يرنو إليها ، فاستجابت له عيناها ، وتلاقتْ
النظراتُ ، وما هي إلا أن انهال عليها الفتى ضمًّا وتقبيلاً . . .

جِنَازَةٌ حَازَةٌ

تَقَدَّمَ « بَشِيرٌ أَعَا » يَهْدِي الطَّبِيبَ إِلَى مَضْجَعِ الخَادِمِ المَرِيضِ
« مِصْطَفَى حَسَنِ » ، وَمَا زَالَ يَتَعَرَّجُ مَعَهُ فِي طَوَايَا الدَّهْلِيْزِ ، حَتَّى
أَوْفَى بِهِ عَلَى حِجْرَةِ مُغْبَرَّةٍ تَتَنَاقَرُ فِيهَا المَقَادِرُ ، يَتَسَلَّلُ إِلَيْهَا ضَوْءُ الشَّمْسِ
مَهْزُولًا مِنْ كَوَّةِ ضَيْقَةٍ فِي أَعْلَى الحَائِطِ . فَأَمَّا أَثَانُهَا فَلَيْسَ إِلَّا حُطَامًا
يُفْصِحُ عَنْ قِسْوَةِ الأَيَّامِ . وَكَانَ أْبْرَزَ مَا حَوَتْ الحِجْرَةُ مِنْ أَثَانٍ
عَتِيقِ خِزَانَةٍ كَالْحَلَةِ نَخْرَةٍ لَا يَنَاسِبُ مَظْهَرُهَا مَا طُوِيَتْ عَلَيْهِ جِوَانِحُهَا مِنْ
مَالٍ وَمَتَاعٍ

لَقَدْ كَانَ « مِصْطَفَى حَسَنِ » شَحِيحَ اليَدِ ، صَبُورًا عَلَى الحِرْمَانِ ،
مَا إِنْ يَقَعُ فِي حَوَزَتِهِ قَدْرٌ مِنَ المَالِ ، أَوْ شَيْءٌ مِنْ ضُرُوبِ المَتَاعِ ، إِلَّا
أَوْدَعَهُ خِزَانَتَهُ الأَمِينَةَ ، وَرَاضَ نَفْسَهُ عَلَى حِرَاسَتِهِ لَا يَمَسُّهُ بِسُوءٍ .
أَقْبَلَ الطَّبِيبُ عَلَى المَرِيضِ يَجْسُ نَبْضَهُ ، وَيَكْشِفُ عَنْ صَدْرِهِ ،
وَيَتَسَمَّعُ إِلَى شَهيقِهِ وَزَفِيرِهِ ، وَمَا أَسْرَعَ أَنْ سَجَّاهُ ، وَأَخَذَ يَبْدُ

« بشير أغا » ، فلما غادر الباب أنهى إليه أن المريض قد حان حينه ،
وأنه لم يبق له في هذه الدنيا الفانية إلا ساعتان .

وما كاد الطبيب يبارحُ الدار ، حتى سارع « بشير أغا » إلى
الطبقة العليا من القصر ، ليُلَاقِي مولاته ، وهو يُعاني جهداً كبيراً في
حَثِّ خطاه ، إذ كان بديناً تخاله غرارةٌ قد حُشيت من لحم وشحم .
فألقي السيدة تهتز ، وهي على سجادة الصلاة ، ترتل ما تيسر من
كتاب الله ، وبين يديها مُقرئتها « الشيخة حفيظة » مُصغية إلى
التلاوة ، تراجعها في أحكام التجويد من مدّ وغنة وإدغام . . .
وإذ شعرت ربة القصر بمقدم « الأغا » أزاحت نظارتها الذهبية
عن أنفها ، ورفعت عن المصحف رأسها ، وقالت مستفسرة :
هل جاء الطبيب ؟

فأجابها الرجل ، مبهور الأنفاس : لقد حضر ، وانصرف . . .
فسألته : ماذا قال ؟

فأخذ يجفّف ما تفصّد من عرقه ، ويحاول أن يضبط أنفاسه
المكروبة . ثم قال حزين اللهجة ، ناكس الرأس : أبقى الله حياة مولاتي !
فعلا صوت السيدة بقولها في احتياج : أمات ؟

فأجابها « الأغا » : إنه يُسلم الرّوح !

فَطَفَّرَتْ مِنْ عَيْنِ رَبَّةِ الْقَصْرِ عَبْرَةَ كَفْكَفَتِهَا بِمَنْدِيلِهَا ، وَهِيَ
تَقُولُ : إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ !

فَتَبِعَتْهَا « الشَّيْخَةُ حَفِيظَةُ » تَجَهَّرَ بِصَوْتِهَا الْأَجَشِّ :
الْفَاتِحَةُ لِرُوحِكَ يَا « مُصْطَفَى حَسَنٍ » .

وَاشْتَرَكِ الثَّلَاثَةُ يَقْرَءُونَ الْفَاتِحَةَ فِي ضِرَاعَةٍ وَتَخَشَعُ ، ثُمَّ نَظَرَ
« بَشِيرًا » فِي سَاعَتِهِ ، فَتَبَيَّنَ أَنَّهَا الْعَاشِرَةُ ، فَنَاجَى نَفْسَهُ بِقَوْلِهِ :
سَيَمُوتُ « مُصْطَفَى حَسَنٍ » فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ عَشْرَةَ تَمَامًا . . .
حِينَ يَنْطَلِقُ مِدْفَعُ الظُّهْرِ !

وَعَادَ يَتَرَجَّحُ ، مَقْتَلِعًا قَدَمِيهِ إِلَى حِجْرَةِ الْمَرِيضِ ، فَاتَّخَذَ مَجْلِسَهُ عَلَى
كُرْسِيِّ بِالْبَابِ ، وَجَلَسَ يَخْفَرُ الْحِجْرَةَ ، وَيَحْمِي خِزَانَتَهَا مِنْ يَدِ
السَّطَوِّ وَالْعَبَثِ .

وَحَانَتْ مِنْهُ نَظْرَةٌ إِلَى سَرِيرِ الْمَرِيضِ ، فَوَجَدَهُ قَدْ أَخَذَتْهُ غَيْبُوبَةٌ ،
فَهَمَّهَمْ يَقُولُ : الدَّوَامُ لِلَّهِ يَا « مُصْطَفَى حَسَنٍ » !

وَأَنسَاقَتْ بِهِ الذِّكْرِيَّاتُ تَعْرِضُ لَهُ حَيَاةَ ذَلِكَ الْمَرِيضِ مِنْذُ كَانَ صَبِيًّا
جَلَبَهُ الْمَرْحُومُ « الْبَاشَا » رَبُّ الْقَصْرِ ، وَعُغِنِي بِتَرْبِيَّتِهِ ، وَاتَّخَذَهُ خَادِمًا لِشَأْنِهِ
الْخَاصِّ ، فَنَزَلَ مِنْ سَيِّدِهِ مَنْزِلًا حَسَنًا عَظِيمًا بِهِ جَاهُهُ ، وَقَوِيَّتُ كَلِمَتُهُ . . .
فَلَمَّا قَضَى « الْبَاشَا » نَحْبَهُ تَمَحَدَّرَتْ بِهِ الْحَالُ ، وَتَعَاوَرَتْهُ الْعُلَلُ ، فَتَهَاوَى مِنْ

كرسيه الرفيع ، حتى أصبح في القصر ممن يُرزقون لوجه الله !
وسرعان ما علمت حاشية القصر بنيا المريض الذي يُسلمُ
الروح . . . فتقاطر الخدم والحشم من مختلف الأرجاء ، يتبينون
جلية الخبر ، فاعترضهم « بشيرأغا » راصداً للباب ، يضرب بعصاه
الأرض ، إرهاباً لمن تحدّثه نفسه بالإقتراب . فجعل الخدم يتدانون
من « الأغا » في خشية ، وهم يسألونه في تشوّف :

هل مات « مصطفى حسن » ؟

فكان يجيبهم في إباء وترفع : إنه يُسلمُ الروح !

وأخيراً نَمَى الخبر إلى « عمّ مدبولي » البستانيّ ، وهو شيخ علتُ
به السنّ ، لا تترك الشُبْحَة يده ، ولا فتورَ ثغره عن التمتمة بالأدعية
والإبتهالات . فجاء إلى الحجرة يتعرّف ويستطلع ، وسوّى له مكاناً على
أديم الأرض ، بجوار كرسيّ « الأغا » ، وجلس القرُفصاء . . . وما
أسرع أن اهتزّ منخرطاً في أدعيته وتسيحاته !

وكان « الأغا » يطمئن إلى صحبة ذلك الشيخ ، ويأنسُ بمجادبته
الحديث ، فلم يَضِقْ بمقدّمه عليه الساعة ، بل لقد أمال إليه رأسه يقول
في همس : سيموت « مصطفى حسن » بعد قليل . . . تُرى ماذا نفعلُ
بترِكَته ؟ ألا يُحسِن أن نوزّعها على الخدم بالعدل والإنصاف ؟

فما إن سمع الشيخُ كلمة « التَّرِكَة » حتى التمعتُ عينه ، وأخذ
يُخَلِّلُ لحيته بأصابعه ، وقال مُسَبِّلاً جفنيته :

افعلْ ما تراه خيراً يا سيدي ...

— سأستخلص لك حِذَاءً جديداً ، وجِلْبَاباً قَشِيباً ، ودِثَاراً من

الصُّوف ...

وثمة همهم الشيخُ يقول :

قلتُ لك افعلْ ما تراه خيراً يا سيدي ... كلنا مطمئنون إلى

عدالة حُكْمِكَ ... ولكن لا تنسَ نصيبك من التَّرِكَة !

— الحقُّ أنني لا مَطْمَعَ لي في شيء ... كلُّ ما أنا صانعه أن

أأخذُ صُرَّةَ النقود ، فأرفقها إلى مولاتي بما فيها من قليل أو كثير ،

للتصرف في شأنها كما تهوى ...

وترامى هذا الحِوَارُ إلى سَمْعِ « محمدين » رئيسِ الخدم ، فتداني

منهما ، وقال « للأغا » في لهجة استعطاف :

أرجو أن أكونَ في ذا كرتك يا سيدي !

— وهل أنساكَ يا « محمدين » ؟ إني مختصُّك بما في حَوْزَةِ

« مصطفى حسن » من الخِفافِ الحُمْرِ ، فقد كان ولوعاً بها ، يحسن

انتقاءها ، وعنده منها عددٌ جَمٌّ ...

فصاح « محمدين » وقد انتفختُ وَجْنَتاهُ ، وارتعشتُ شفتاهُ :
أطال الله بقاءك . . . ولكن ألا يكون المُطْرَفُ الجديدُ
من نصيبي ؟

— وهذا أيضاً . . . لا أُحْرِمُكَ إياه ، ما دمتَ فيه راغباً .
فأهوى الرجل برأسه على كَتِفِ « الأغا » فقبلها قُبلة انشراح ،
واعتراف بالجميل . . . وانصرف رئيس الخدم عَجَلَاناً ، وَثَابَ
الخطأ . . .

فما أسرع أن أقبل بعده « عبد القوى » السَّقاء ، يقول مهتاج
النبرات :

لقد أديتُ للمرحوم أجلاً الخدمات . . . أليس لى فى تَرِكْتِه حقّ ؟
فصاح « الأغا » بحبيبه : ما أغباك ! أترانى نَسَيْتَكَ ؟ !
فاطمأنت نفس الرجل ، وقررت بلابله ، وتكلم فى ملاطفة وتمليق :
سيدى « الأغا » حفظه الله يعلم أنى قنوع . يرضينى أى شىء . . .
لا أرجو إلا بعضَ التوافه . . . فأولا : الحذاء الأسود الذى كان للمرحوم
« الباشا » من قبلى ، ولم يلبسه « مصطفى حسن » حتى اليوم . . .
وثانيا : الطربوش الجديد الذى اشتراه « مصطفى حسن » للعيد الماضى

ولم يضعه على رأسه بعدُ . وثالثاً : القُطْنِيَّةُ المَعْصُفَرَةُ التي بقيتْ مَصُونَةً
لم تَمَسَّهَا يَدُ الخياطِ ! ... و رابعاً ...

وهنا تحرك الشيخ البستاني ، وهو في جِلْسَةِ القُرْفُصَاءِ ، وأمسك
عن أدعيته ومناجياته ، وثار صوته مغضباً يقول :

أنتَ لا تريد أن تترك لسواك شيئاً ... دع الأمرَ لحضرة «الأغا»
فهو يوزع الأشياء بالسَّوِيَّةِ والحكمة ... الخدم في القصر كثير ...
أين نصيبُ القاري؟ أين ما يأخذه الطاهي؟ أين ما يناله البواب؟

وفي هذه اللحظة نَجَمَ صوت المريض متداعياً يحاول أن يشقَّ طريقه
إلى الباب ، كأنه صوت ينبعث من قبر ... فأرهف الجمعُ السمعَ ،
فإذا هو «مصطفى حسن» ينادي ، قهض «الأغا» يجفف عرقه ،
وغنم : لقد دنت الساعة الفاصلة ... الرجل يُسَلِّمُ آخرَ الأنفاس !

واستدار «الأغا» يَزْحَمُ البابَ بِجَرِّهِ الضخم ، ودخل يقفوا أثره
بعض خدام القصر وحاشيته ، فأحاطوا بمضجع المريض المحتضر ، فنَدَّتْ
عنه اختلاجة طارئة ، وأمسك بيد «بشير أغا» وهو يضغط عليها جُهداً
ما يستطيع ، ثم قال متقطع الأنفاس : ماذا قال الطبيب؟ ماذا في
الأمر؟ سمعتُ حديثاً في شأنِ تَرِكْتِي !

فكَّسَ «الأغا» رأسه هُنَيْهَةً ، وهو يربّتُ كَتِفَ المريض ،

وَيَلُوكُ بَيْنَ شِدْقِيهِ كَلِمَاتٍ فِي غَيْرِ إِبَانَةٍ ، فَاْمْتُقِعَ وَجْهَهُ « مِصْطَفَى حَسَنٍ »
وَانْتَضَمَتْ جِسْمَهُ الرُّعْدَةَ ، وَأَدْرَكَتَهُ نَوْبَةُ سَعَالٍ وَشَهِيْقٍ أَسْلَمَتْهُ إِلَى
غَيْبُوبَةٍ شَامِلَةٍ !

وَلَمْ يَبْقَ شَيْءٌ عِنْدَ أَحَدٍ مِنَ الْجَمْعِ فِي أَنْ الْمَرِيضَ قَضَى ، فَأَخَذْتَهُمْ
غَاشِيَةً مِنَ الرَّهْبَةِ ، عَقَدَتِ أَلْسِنَتَهُمْ جَمِيعًا ...

وَبَعْدَ فِتْرَةٍ شَخَّصَتْ أَبْصَارُهُمْ إِلَى « الْأَغَا » فَقَطَّنَ إِلَى مَا يَعْنُونَ ، فَدَنَا
مِنَ الشَّيْخِ الْبِسْتَانِيِّ ، وَأَسْرَّ إِلَيْهِ كَلِمَاتٍ ، فَاقْتَرَبَ الرَّجُلُ مُرْعَشَ الْأَصَابِعِ ،
يَبْحَثُ تَحْتَ وَسَادَةِ الْمَرِيضِ عَنِ مِفْتَاحِ الْخِزَانَةِ .

وَبَيْنَا هُوَ يَتَحَسَّسُ ، انْفَرَجَتْ أَجْفَانُ الْمَرِيضِ ، فَهَبَتِ الشَّيْخُ أَوْلًا
وَهَلَةً ، ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ قَالَ فِي وَدَاعَةٍ وَتَحْنُنٍ : هَاتِ الْمِفْتَاحَ يَا « مِصْطَفَى »
أَخْرِجْ لَكَ الدُّنْيَا الصُّوفِيَّ ، فَإِنِّي أَجِدُكَ مَقْرُورًا .

فَاخْتَلَجَتْ شِفْتَا الْمَرِيضِ بِقَوْلِهِ :

دَعُوا الدُّنْيَا مَصُونًا ... لَا ضَرُورَةَ لِإِبْتِدَالِهِ ... سَأَحْتَاجُ إِلَيْهِ

فِي قَابِلِ الْأَيَّامِ !

وَبَدَأَ وَجْهَهُ مُتَقَلِّصًا ، كَأَنَّهُ فِي إِجْهَاشَةٍ مُبْكَاءٍ ، وَشَدَّ عَلَى يَدَيْ

الشَّيْخِ الْبِسْتَانِيِّ ، وَحَدَّقَتْهُ تَدْوِيرَانٍ ، وَصَوْتُهُ يُخَوِّنُهُ فِي إِبْلَاحِ قَوْلِهِ :

لا أريدُ أن أموتَ . . . صحتي تتحسنَ . . . أو كد لك أن صحتي

تتحسّن . . .

واشتعلتْ في جُسمَانِهِ نَشْطَةٌ وَحَمِيَّةٌ ، فعالج أن يستندَ إلى شيخ
البيستان ليجلسَ ، وهو يقول : أريد أن أتركَ الفراشَ . . . أريد أن
أتمشى في الحجرة خطوات . . . أشعر بأنني أستطيع القيام !

وفي هذه اللحظة اختنقَ صوتهُ ، وسقطَ على الوِسَادَةِ رأسُهُ ،
وجعل صدرُهُ يعلو ويهبط ، وأوصاله تتشنج . . . ثم انفتحَ فمه يلتمسُ
الهواءَ في إلحاح ، وانتظمتُهُ انتفاضةٌ كخطفة البرقِ فاضتُ بها الرُّوحُ .
فأقبل الشيخ البيستاني ييسُطُ عليه غِطَاءَهُ ، ثم دسَّ أناملَهُ في طوايا
الوِسَادَةِ ، فاستخرج المفتاحَ ، ومدَّ به يَدَهُ إلى « الأغا » في تُوَدُّدَةٍ
وخشوع .

وأصدر « الأغا » أمره فوراً بنقل الخزانة خارجَ الحجرة ، فتجمع
الرجال يتقاسمونَ جوانبها حملاً وتقلًا ، ولكنها أفلتت من بين أيديهم ،
فهوتْ على الأرض متحطّمةً ، فأنكشفتُ فيها بعضُ ما حوتْ من
ضروب المتاع . . . فدَّ أحدُ الرِّفَاقِ يَدَهُ خُلْسَةً يجتذب منها شيئاً ،
فلمحه آخر ، فحذا حدوّه ، وماهى إلا أن ترامى الجمعُ على الخزانة
يتخاطفون ما فيها . وَحَمِيَّتْ معركة التناهب ، فاختلط الرِّفَاقُ بعضهم

ببعض يتنافسون ، وتشابكت الأيدي تتدافع وتتنازع ، وتعالّت
الأصوات تحمل ألفاظ المشاتمة والسباب .

ووقع في رُوع « الأغا » أن صُرّة النقود في خطر ، فانبهرى يرسل
من حلقه صيحة الإمرّة ، راغباً إلى الجمع في أن يكفوا عن السلب
والإغتصاب ، فلم يُعرّه أحد من الرفاق جانب انتباه . . . وهل أبقت
الفريسة لهذه الذئاب الجياع سَمْعاً يعي ؟ لقد كان الرفاق في شغل بما
بين أيديهم من غنيمة مستباحة ، من ظفر منها بشيء فهو له متاع !
وجنّ جنون « الأغا » فلم يجد مندوحة عن الإقدام والاقترام .
فهجم مستبسلًا مستئيسًا يخوض المعركة بكل ما وهبته الطبيعة من
جوارح ، تارة يزحم بمنكببيه ، وطوراً يدفع بساعديه ، ومرة يكسع
برجليه ، حتى إنه لم يُعف أسنانه من أداء واجبها في هذا العراك !
وتاح له بهذه الوسائل أن يشقّ طريقه إلى الخزانة ، فلما اقترب منها
ترامى عليها بجسمانه الضخم ، يحجبها عن الجمع ، وشرع يُعملُ أصابعه
في جنباتها ينبش ويتفقد ، فلما عثر على ضالته المنشودة ، أسرع إليها
يدشها في جيبه ، ونهض عن الخزانة وقد خفت حدته ، وبطلت صولته ،
وانصرف يُمطُ شفّتيه للرفاق ، وينعى عليهم ما طُبعت عليه نفوسهم
من ضعف الوفاء ، وقلة المروءة ، وسوء الأخلاق !

وصعد « الأغا » إلى طبقة القصر العليا ، يُنهي إلى مولاته نبأ
الوفاة ، ويسألها ما يصنع في شأن الجنازة ، فترحت السيدة على
الفقيد ، وناولت « الأغا » قدراً من المال للإِنفاقِ منه في هذا الشأن ،
وأوصته بالعناية والاهتمام . . .

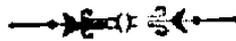
وعاد « الأغا » إلى حجرتة ، فأحكم إغلاقَ بابها وراءه ، وبسط
الصُّرَّةَ أمامه ، فتناثرت النقود الذهبية متوهجةً رنانةً ، فطفق يتوسمها
ويعدُّها ، فإذا هي مائة كاملة ، فأقبل يكرِّرُ عدَّها مثنى وثلاث
ورُبَاعَ ، وهو واجفُ القلب من فرحة واغتباط . . .

وفي أصيل ذلك اليوم خرجت من باب القصر جنازة
« مصطفى حسن » مكتملةً علام الأُبَّهة ، مُشعرةً بعظيم الإعزاز ،
يتقدمها حَمَلَةُ القماقم والمباخر، وهم رتلٌ منظمٌ في سِمَطَيْنِ كأنهما صَفَّانِ
من الجند . . . ومن خلفهم النَّعْشُ تُجَلِّدُهُ المطارف المزخرقة ، وهو يتأيل
على الأكتاف ، كأنه يتخطَّر في خيلاء . . . ومن حوله القراء تنطلق
من حناجرهم الأُدعية والصلوات ، كأنهم يزُقُون الراحلَ إلى مقرِّه
الأخير !

وتصدَّر المشيِّعين خُدَّامُ القصر ، على رأسهم « الأغا » وهو يسير

وَزَيْنَ الْخَطَا ، رزینِ السمت ، يتوكأ على عصاه ، كأنما هو قائد يقفوه
الجيشُ في ساحةٍ عَرْضٍ مهيب . . .

وقد أبا خدام القصر إلا أن يُشيعوا رفيقهم الراحل بما يليق ،
تكريماً له في يوم وداعه الأبدى ، فلم يجدوا خيراً من ملابسه وأشياءه
ومقتنياته يرتدونها ويتحلون بها . فظهرت الجنازة بهيئة الشارة ، أنيقة
المظهر ، كأنها عروسٍ يُحملُ معها جهازها حين الزفاف !



... طريق إلى الحب

« عباس فريد » الطالب بالمدرسة الخديوية ، أو « عباس بك فريد »
نجل المرحوم « عبد السلام باشا فريد » فتي في السادسة عشرة ، رزين
السمت ، وديع الأخلاق ، لا عهد له بعدُ بمغامرات الشباب ،
مغامرات الحب والنساء . . .

وكان لأسرة الفتى معنىً أنيق في « رمل الإسكندرية » تقضى
فيه فترة الإصطيف كل عام . فما إن فرغ الفتى من أيام الامتحان ،
واختتم عامه الدراسي ، حتى شدَّ رحاله إلى معنى الأسرة في الثغر ،
يستوعب حظه من مُتَعِ الشاطئ ، فيستحِمُّ ويتنزّه ، ويرتاد ملهى
« الكازينو » ، ويختلف إلى دور السينما والمسارح ، يشارك رفاقه
من الفتيان ما ينعمون به من فنون المسرات .

أطلَّ « عباس » من نافذة حجرتة المشرفة على البحر ، وعلتُ
وجهه إشراقة ، وهو يرْمِي بِطَرْفه فيما حوله ، مرحباً بتلك الحياة الأنيسة
التي طال إليها تخنّأه طوال أشهر الشتاء .

واتخذ الفتى مجلسه على مقربة من النافذة ، وفي يمينه قصة يطلب
السؤال بقراءتها ، ولكنه ما كاد يخطو فيها بضع صفحات ، حتى
اختلفت عليه مشاهدتها ، فألقى بها في ملل ، وبقي يفكر فيما أصابه
اليوم من فوز حين خرج إلى البحر مع أصحابه يتسابقون بالقوارب ، فلم
يستطيعوا اللحاق به ، وظل هو السابق الأول .

وفيا هو يسرح بصره في أرجاء البحر المهتاج ، عرضت منه التفاتة
إلى حديقة الدار المجاورة ، فألقى بنت صاحب الدار تجوس خلالها ،
وهي فتاة أجنبية اعتاد « عباس » أن يراها حيناً بعد حين ، كما يرى
أثاث المنزل ، أو أشجار الحديقة . وما كان ليشغله منها شيء ، فإنه
مزدحم الخاطر بما يراول من رياضات ينافس فيها الرفاق .

وبينا هو على هذه الحال ، إذ انفرج الباب فجأة ، وبدت منه
والدة الفتى وفي عينها شرر ، وعلى وجهها غبرة الغضب .

فابتدرته تقول في لهجة المحنق :

طالما نهيتك أن تمد عينيك إلى النساء . . . طالما رغبت إليك في
أن تكون مؤدباً مهذب الأخلاق . . . إلى متى تظل في غوايتك ؟
فدهش الفتى ، وأنكر من أمه أن تتعمده بهذا التعنيف وسألها :
أي نساء تعنين ؟ أقسم بالله العظيم إنه لم يكن من ذلك شيء !

— كذاب أنت !

وعَزَّ عَلَى الْفَتَى أَنْ يُتَّهَمَ ظُلْمًا ، وَأَلَّا تُصَدِّقَهُ أُمَّهُ فِيمَا يَنْفِيهِ مِنْ هَذَا الْإِتِّهَامِ ، فَكَسَتْ وَجْهَهُ غِشَاوَةً مِنْ كَأْسِ بَابِ وَاعْتِمَامِ .

فتدانتُ منه الأم ، وقد أدركها عليه بعضُ إشفاق ، قائلَةٌ له :
إِنِّي أَبْغِي خَيْرَكَ يَا «عَبَّاسُ» ... أُرِيدُكَ شَابًّا عَلَى خَلْقِ كَرِيمٍ ...
اصْدُقْنِي ... لَقَدْ كُنْتَ تَبْتَسِمُ لِبَنَاتِ الْجِيرَانِ ... أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟
فحدقَ الفتى في وجهها صائحًا :

لِمَ أَكُنُّ أَبْتَسِمُ لِأَحَدٍ ... لَقَدْ تَذَكَّرْتُ شَيْئًا سَرَّتَنِي فَاِبْتَسَمْتُ !
فَرَبَّتْ الْأُمُّ كَتْفَهُ فِي مِلَاطِفَةٍ ، وَهِيَ تَقُولُ :
أَنْصَحُ لَكَ يَا بُنَيَّ أَنْ تَتَجَنَّبَ هَذِهِ الْفَتَاةَ !

— لا شأن لي بأحد ...

— ذلك أُملي فيك .

وانصرفتُ الأم من الحجرة ، بعد أن طبعتُ على جبين ابنتها
قُبْلَةً حَنَّانًا ... وَابْنُهَا يَتَّبَعُهَا بِنَظَرَةٍ مِلْؤُهَا التَّعَجُّبُ ، وَهُوَ يَهْمُهُمْ :

سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ !

وانتبه « عباس » من نومه في رَوْتَقِ الصَّبَاحِ ، ناشطًا يريد أن

يَعَجَلُ إِلَى ظِلَّتِهِ عَلَى شاطئِ الْبَحْرِ ، لِيَأْتِيَ الرَّفَاقَ ، وَيَقاسِمَهُمْ مَبَاهِجَ
الِاسْتِحْمامِ .

وفيا هو يتخطى عتبة الدار ، أخذت عينه « بنت الجيران » تحمل
لَفِيفَةً حوت لبؤس البحر ، فأسرع ماضيا عنها ، متجنباً مرآها ، وقد
حضره ما دار بينه وبين أمه من مُسَاجَلَةٍ في شأن هذه الفتاة .

وفي عصر يوم صادف « عباس » صديقه « مراد » في
« الكازينو » فترافقا يتحدثان . وما إن خطوا بعض خطوات حتى
مرَّ بهما سِرْبٌ من الصبايا يتضحكن ، فنظر « مراد » إلى إحداهن ،
وأسرع إليها يحییها ويطارحها الكلامَ في بشر وإيناس . ورجع
إلى صديقه ، فألفاه واقفا شجاة البحر ، يُلوحُ عليه التزمّت والجدُّ ،
فقال له : كان بودى أن أعرفك بصاحبتي !

— لا شأن لي بصاحبتك .

— ولماذا ؟ إنها فتاة لطيفة . . .

— دَعْنِي من سخافتك !

فعمجب « مراد » من قوله ، وحدث فيه يقول :

ما زلت طفلا يا « عباس » !

وبغته بدت « بنت الجيران » على مقربة من الرفيقين ، وهي

تتهادى فى لمة من الصوِّ يحبات . فشدَّ « مراد » على يدِ رفيقه ،
قائلاً له : هذه جارتك . . . ما أملاحها من فتاة . . . ودِدْتُ لو تمَّ
بيننا تعارف !

فلوى « عباس » رأسه ، حتى لا تقع على الفتاة عينه ، ونغم
يقول لـ « مراد » : بربك اترك هذه الفتاة وتأنها !
وسار حثيثاً ، يجرُّ رفيقه جرّاً . . .

ولما أوى « عباس » إلى بيته فى المساء ، أنكر من أمه جهامةً
توضحت على مَحَيَّاهَا ، لم يدر لها سببا . . . فلما أصاب عشاءه ، وهمَّ
أن يمضى إلى حجرتة ، رغبت إليه أمه فى أن يتبعها إلى حجرتها
الخاصة بها ، فانقاد لها . وما كادت الحجرة تحتويهما حتى أسرعَت الأم
تقول : ما برحت على هواك يا «عباس» . . . لا تُلقى لنضحى بالا !
— كيف ؟

— لقد حذرتك النظرَ إلى بنت الجيران .

— وماذا كان منى ؟

— لقيتها صباحاً ، فبادلتها النظرَ والإبتسام .

فصاح الفتى : أنا ما نظرتُ ولا ابتسمتُ !

فقاطعتُه الأمُّ تتابع قولها : وتلاقيتُها عصرأ ، وأنت فى صحبة « مراد »

تَذَرَعَان « الكازينو » ذهاباً وجيئةً . . . فكان من تحيتك لها
واهتمامك بها ما كان في الصباح !

فرغ الفتى صوته قائلاً : لم يكن الأمرُ على هذا النحو .

وشرع « عباس » يقصُّ على أمه في تُوْدَةٍ ما جرى له في يومه ،
وما كان من تجافيه عن النظر إلى الفتاة ، فلم تهمله الأم ليستكمل روايته ،
ولكنها عاجلته بقولها في لهجة صارمة : هذه آخر مرة أحذرك فيها
وأندرك . . . أترضى لنفسك أن تتعلق بفتاة لا هي من جنسك ، ولا
هي لائقة بك ؟ لعمرى لو فعلت لذهب مستقبلك أدراج الرياح !

— عجيبٌ ما تقولين يا أماه . . . لا تعلق لي بهذه الفتاة . . .

لا تعلق لي بأحدٍ على الإطلاق !

وانفعل من الحجرة غضباناً أسفاً ، يفكر : كيف تسنى لأمه أن
تعرف من أمره ما عرفت ؟ وسرعان ما ألقى في روعه أن أخته
الصغرى هي التي دبحت هذه الوشاية وحملتها إلى أمه لتنتقم منه ، فكثيراً
ما ضاقت بما له عليها من سلطان ، وكثيراً ما تبرمت بما يلزمها به من
أمر ونهى ، فأقسم بينه وبين نفسه ليحسنن تأديبها ، وليبالغن في عقابها
على هذه الفعلة الشنعاء .

وصباحاً خرج « عباس » إلى الشرفة ، يتملئ منظر البحر ، فألقى

«الست إقبال»... ضيفة البيت ، تلك التي تؤنسُ أمه بحديثها العذب
وما يتخلله من دُعابات وأفأكيه ، فقد كانت في عصر شبابها الغارب
سبّاقَةً في مغامرات الحب والهيام . . . وما كاد يراها «عباس» حتى
أقبل عليها قائلاً : ماذا تفعلين يا «ست إقبال» ؟

— أرتقُ ثوبي المهلhel . . . إن جيبى أصبح كقلبي خالياً . . .
فمن أين لى بثوبٍ جديد ؟

ثم جعلتُ تطيل النظرَ إليه ، وعلى فمها ابتسامٌ مُريب .
فقال لها فى تعجُّب : ما لكِ تنظرين إلىّ على هذا النحو ؟
— حقاً لقد تغيرتَ يا «عباس» !

— تغيرتُ ؟
— أجل ، كبرت . . . ولكن ما بالُ وجهك يكسوه سُحوب ؟
ومالكِ تنطوى على نفسك ، كأنك فى حيرةٍ وقلق ؟
ثم رنت ضحكتها النسوية العائثة ، وهى تقول :

إن قلبك كجيبك ملآن . . . والحب كالذهب يشغل البال !
فحدّق فيها «عباس» تعرّوه دهشة ، وما لبثت «الست إقبال»
أن ألقَتْ ما كان فى يديها على المنضدة ، ونهضت تأخذ بكتفِ الفتى ،
وتهمس فى أذنه :

لا تَثْرِيْبَ عَايِكَ . . . كل فتى في مثل سنِّكَ يَعْشَقُ . . .
ما أحلى الحبِّ في مِيعَةِ الشَّابِّ !
وحانت منها التفاتة إلى الحديقة المجاورة للدار ، فوقع بصرُها على
« بنت الجيران » تَجُوسُ خِلالَ الشَّجَرِ ، فعمزت المرأة يد الفتى ،
وهي تقول مهتاجة النبرات :

انظر . . انظر . . ما أحلاها . . . يا بختك يا « عباس » !
فتضرَّجَ وجهُ الفتى ، واتهرَّ « الست إقبال » ، وغادر المكانَ
مسرَّعَ الخطوات ، فأوى إلى حجرتِه ، وقد أحسَّ بخواطره تتزاحم ،
يلوح بينها طيفُ الفتاة ، كأنما يتدأنى منه في ملاطفة وإشراق .
وبينما كان الفتى بعد هدأةٍ من الليل يسير إلى مرقدِه ، مرَّ في
طريقه بحجرة الخدم ، فاسترعى انتباهه همس يتناثر فيه اسمه ، فوقف
يتسمَّع ، فإذا بالخدم يخوضون في حديث عنه مقرونٍ باسم « بنت
الجيران » ، وهم يتكلمون في نشوة وإعجاب . . . فلاحَتْ على وجهه
بسمة ارتياح ، ومضى خفيفَ الخطو يترنِّم ، وماهى إلا أن احتواه
فراشه يهنأ بأحلام عذاب .

وفي الغداة استيقظ من نومه يفتح النافذة ، فترأت له « بنت
الجيران » في شُرْفَةِ بيتها أمامه ، فلم يتراجع ، بل ظل في موقفه يتملأها

فإذا هما بغتةً يتطارحان النظر ، وما لبثا أن ابتسم كلاهما لصاحبه في
رقةً وتلطف . . . وبعد لحظات غادرت الفتاةُ الشرفة ، فترك « عباس »
النافذةَ مترنحَ الأعطاف ، خفاقَ الفؤاد .

وتواصلتُ الأيام ، فلم تبقى شرفة أو نافذة في البيتين المتجاورين
إلا سجلت في حيطه وحذر ألواناً من التحايا ، وفنوناً من البسمات ،
يتراسلُ بها القلبان الطروبان !

وأحسنَ الخدم أن الفتى ينسلُّ من حجرة فراشه في جوف الليل ،
فيسارقُ الخطأ في مساترة واحتراس ، ووجهته حديقه الجيران . . .

obeykandl.com

مسطرة "مبروك افندي"

بارح التلميذ « دغيس الكومي » منزله في رَوْنَق الصبح ،
آخذاً سَمْتَه إلى حارة « كفر الطاعين » حيث تقع « مدرسة المَكْرُمَاتِ
العالية » التي يتلقَى فيها تعليمه الإبتدائي . ولما قارب دارَ المدرسة ألقى
رفاقه منتشرين هنا وهناك ، يتحدثون ويتلاعبون ، انتظاراً
لدَقَاتِ الناقوس .

واسترعى انتباهه لفيف منهم قد أحذقوا بعربة « عم عُصفور »
بائع الحلوى وأدوات الكتابة ، فاندسَّ بينهم يتبين ما يشترون ، وما
ليث أن ابتاعَ من الرجل قطعة من « الشكولاته » حَسَاباً بها فمه
على الفور .

وراعه مما احتوته العربة طائفة من أقلام المِداد زاهية الألوان ،
ساطعةُ اللعان . . . فرنا إليها في شَغَف ، ولم يستطع مغالبة نفسه ،
وهي تراوده أن يظفر بواحد منها ، فأقبل على « عمَّ عُصفور » يسأله ،
وقد أشار إلى قلم وقع عليه اختياره : أرني هذا القلم . . .

— أتريد شراءه ؟

— سأنظر .

— إنه لا ينفك . . . هو للمدرّسين وللتلاميذ الكبار .

— دعني أراه . . .

فانتزع الرجل هذا القلم المختار من بين الأقلام ، ودفع به إلى الصبي ، فأخذه منه يقلبه بين يديه مشبوب النفس ، وسرعان ما تذكّر أن معلّم الإملاء يحمل مثل هذا القلم ، عامراً بمداد أحمر . فالتمعت عيناه ، وخفق فؤاده ، وضرب بيده في جيبه يعدّ ما فيه من النقود ، فإذا هي بضعة قروش ، فهمهم قائلاً : بكم هذا القلم يا « عم عصفور » ؟

— بثلاثين قرشاً . . .

فبهت الصبي ، واهتز القلم في يده ، ولم يجد بُدّاً من أن يعيده إلى الرجل في أسف وحسرة ، فعاجله البائع مستدرّكاً يقول :

ولكنني من أجلك أبيعك إياه بخمسة عشر قرشاً . . . بنصف ثمنه . . . أنت زبون حسن المعاملة !

فأخرج الغلام كل ما في جيبه ، وجعل يُحصي قروشه ، فألفاها خمسة كاملة ، فألقى بها إلى الرجل ، وهو يقول له :

هاك ما معي الآن . . . وغداً أنقذك ما بقي .

— لا بأسَ يا سيِّد « دعبس » . . . طَلَبُكَ مُجَاب .

— ولكن لا بدَّ للقلم من مدادٍ أحمر !

— إليك زجاجةٌ بقرش ، يبيعهها غيرى بثلاثة قروش .

— شكراً لك يا « عم عصفور » . . . موعداً غداً إن شاء الله .

وانطلق الصبيُّ بالقلم وزجاجة المداد ، يتوالب نحو المدرسة ،
والدنيا لا تسع فرحته وابتهاجه .

وما كاد الصبيُّ يأخذ مكانه من فصله ، حتى أعلن الناقد
ابتداء الدراسة ، فتوافد التلاميذ على فصولهم ناشطين ، فلم يستطع
الصبيُّ إلا أن يُخفي القلم في جيبه والزجاجة في قمطره ، تاهباً
لاستقبال الدروس .

على أنه لم تكد تجلُّ فترة الراحة بين الحصص ، فينصرف التلاميذ
إلى فناء المدرسة يشغبون ويلعبون ، حتى لزم هو كرسيه ، خالياً بنفسه .
وأقبل على قلمه يعمره بالمداد الأحمر .

وبينا هو كذلك ، إذ مرَّ من جانب الفصل ضابطُ المدرسة ،
فلمحه قابلاً في ركبه ، فصاح به : ماذا يُبقيك هنا يا ولد ؟

فأسرع الصبيُّ يخفي ما في يده ، قائلاً : لا شيء . . . سأخرج !
ولم يبرح الضابط مكانه ، حتى انجلى الصبيُّ عن فصله .

وفي فترة الغداء ، عند الظهيرة ، تفرق التلاميذ يتناولون الطعام ، فاتهمز « دعبس الكومي » هذه الفرصة ، ولم يُنفق من وقته في تناول طعامه إلا لحظاتٍ قلائل ، وأمضى بقية الوقت قابلاً على كرسيه يُمتع نفسه بإجراء القلم الجديد على الصفحات البيض ، يُبرقشها بذلك المداد الوردى الزاهي .

وقبيل استئناف الدروس ، مرَّ عن كُتُبٍ منه أحدُ أقرانه ، فقال له : أتعبتُ بالكتابة ، وعليك أن تحفظَ جدولَ الضرب لتُمتحنَ فيه اليومَ ؟ .

فأشرع الغلامُ عينيه ، وأجاب قرينه في دهشة :

وهل موعِدُ الامتحان اليومَ ؟

فقهقه الصبيُّ قائلاً : أليس اليومَ يومَ الأربعاء ؟ . . . يبدو أنك

مشتاق إلى مسطرةٍ « مبروك أفندي » !

— ما هذا المزاحُ الثقيلُ ؟ الامتحانُ غداً .

— بل اليومَ . . . أضحُ من نومك !

واستبان لـ « دعبس » أنه كان غافلاً ، وأن الامتحانَ يجري

اليومَ حقاً ، فارتجفت أوصاله ، وتراءت له مسطرة معلم الحساب ،

المعروف بالشدة في العقاب !

فانبرى يقلب دفاتره بحثاً عن جدول الضرب ، وهو مضطرب
متفزع . . . ولما وجده أكبَّ عليه يحاول استذكاره ، ولكنه ألقي
بصره بزيغ ، وأحسَّ برأسه يدور .

ورنَّ الجرس في هذه اللحظة ، فارتفعتُ جلبةُ التلاميذ في تدافعهم
إلى الفصول ، وهم يرددون الأرقام في أنفاسٍ متلاحقة .

وتجلى « مبروك أفندي » على عتبة الفصل ، صائحاً في عنف :

صَمْتًا يَا مَلَاعِينَ !

فانقطع الصَّخَب ، وساد السكون ، وتعلقت الأنفاس . . .
فدخل المعلم كالنمير المتخطف ، شاهراً في يده مسطّرتة التي ذاق التلاميذُ
من سطوتها لَذَع النار . . . وقد أزاح طرف بوشه إلى الخلف ، فظهرت
قُصَّتُهُ شعثاء مغبرةً ، تزيد غِلظةً ورهبةً .

وما عتمَّ « مبروك أفندي » أن ابتداءً يمتحنُ الغلمان ، فسأل أحدهم :

٩ × ٧

فتلعثم المسؤل ، فهجم عليه المعلم يقول له : ابسطُ يدك . . .
فقبضها الغلامُ خلفَ ظهره ، وهو يجمع في استرحام . ولكن
« مبروك أفندي » لم يعجزُ عن بسطِ تلك اليد العَصِيَّة ، والانهيال
عليها ضرباً بالمسطرة ، فكان وقعُ الضربات يمازج نَشِيحَ الغلام

وصياحه ، ويؤلف لنا مفزعاً يهت الخشية في أرجاء الفصل جميعاً .
وأحسن « دعبس الكومي » في هذا الوقت بأن يده كأنما
لَسَعَتْهَا عَقْرَب !

ونادى المعلم اسماً جديداً ، وهو يقول : ٧×٩ . . . أجب !
فنطق التلميذ في جرأة يجيب بقوله : ٧٩
فإذا المعلم في خُطْفَةِ البرق ينتفض ، وإذا هو أمام التلميذ وجهاً
لوجه ، يقول له : جيد جداً . . . ستنال تسعاً وسبعين ضربة !
وجعل يكيل له الضربات عَشَوَاءً ، والتلميذ يتلوى ويَجَار . . .
وبينما كان ذلك يجري في ركن من الفصل ، كان « دعبس
الكومي » يُمرُّ يده على جبينه ، والعرق يرفض منه في غزارة .

ومضى « مبروك أفندي » يتنقل بين أسماء التلاميذ ، ممتحناً إياهم
في نشاط وحماس ، وما هي إلا أن سمع « دعبس الكومي » اسمه
يَرِنُ في الفضاء ، فوقف مُرْعَشاً ، فصاح به المعلم يقول : ٦×٨
فَشَعَرَ الصبيُّ بأن لسانه قد اعتُقِلَ ، وأن الأرض تَدُورُ به ، فأعاد
المعلم سؤاله في صوت جَهِير : ٦×٨ . . . انطق يا ولد .

فأخذته نوبة إجهاش ، ولسانه يتعثر بهذه الكلمات :
والله العظيم يا أفندي نسيت أن آخذ جدول الضرب معي أمس

لأحفظه . . . والله العظيم يا أفندى سأحفظه !

فأزهرت عينُ المعلم الغيور ، ورفع يده بالمِسْطَرَّةِ لِيُهَوِيََ بها
على التلميذ .

وهنا اهتزَّ الغلام في موقفه اهتزازةً سقط على أثرها قلمه الجديد ،
وما أسرع أن أدلى المعلم بنظره يتبينُ الأمر ، فبهرت عينه لَمعةَ القلم وهو
يتوهج في وَضَحِ النهار ، فأنحنى عليه يلتقطه ، وطفق يتفحصه وقد بدتْ
عليه أماراة الإهتمام . . . على حينِ كان « وعبس الكومي » يرتعدُ
من فرطِ الخوف .

ورفع « مبروك أفندى » رأسه عن القلم ، وهو يهمهم :
عرفتُ الآنَ ما ذا يُلهيكَ عن حفظ جدول الضرب . . . هذه
الأقلام . . . بدعةُ آخرِ الزمن !

وأراد الغلام أن يتكلم ، فاستعصى عليه القول ، وهمَّ بأن يمدَّ يده
ليأخذَ قلمه من المعلم ، فارتفع صوت « مبروك أفندى » قائلاً :

قسماً لا جزاءَ عندي لمن أجد عنده قلماً كهذا إلا أشدُّ العقاب !

واستدار يخطو إلى منصَّته ، في صدرِ الفصل ، وهو يتنحرج
ويَسْعَلُ . . . فأما القلم فقد تسلل إلى جيب « مبروك أفندى » ليأخذَ
فيه قراره المكين .

وشغل المعلم نفسه فترةً بما بين يديه من دفاتر وأوراق ، ثم تكلم
خافت الصوت يقول : اجلس يا « دعبس » . . . سامحك هذه
المرّة . . . إياك أن يلهيك شيء عن واجبك !

وهو ي التلميذ على مقعده ، وهو في غمرة من حيرة وذهول .
واستأنف المعلم نداءه للأسماء ، وإجراءه للإمتحان ، حتى دقَّ
الناقوس ، أذاناً بانتهاء الدرس . . . فنزل « مبروك افندى » عن
المنصة ، واتخذ سبيله إلى الباب ، يخطو كالنمر المتخبط ، تتقدمه قصة
الشعشع ، وتتراقص في يده مسطرتة العاتية !

وما كاد يتوارى عن الأنظار ، حتى علا نحيب « دعبس الكومى »
و بين جنبيه من الغيظ جمرّة تتلاطى . . .

فسأله أحد الرفاق : أتبكي وقد نجوت من المسطرة ؟

فنظر إليه الغلام مُغضباً ، دون أن ينبس .

وما لبث أن أمسك بزجاجة المداد الأحمر ، وقذف بها من النافذة ،

وهو يعرض على يده ، والتلاميذ من حوله في ضجة يتضحكون . . .

فہرست

صفحة

۱۵۰	شباب وغانیات
۱۴۷	شیخ الزاویۃ
۱۶۳	کبشُ القداء
۱۸۱	ضربُ الحبيب
۱۹۵	جنازة حارة
۲۰۷	طریق إلى الحب
۲۱۷	مسطرة « مبروك افندی »